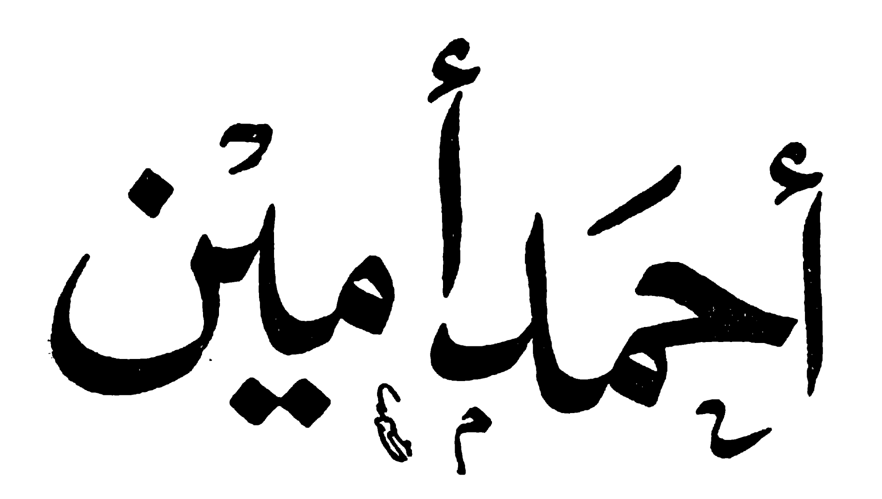


بقلمه وقلم أصدقائه

بمناسبة الذكرى الأولى لوفاته

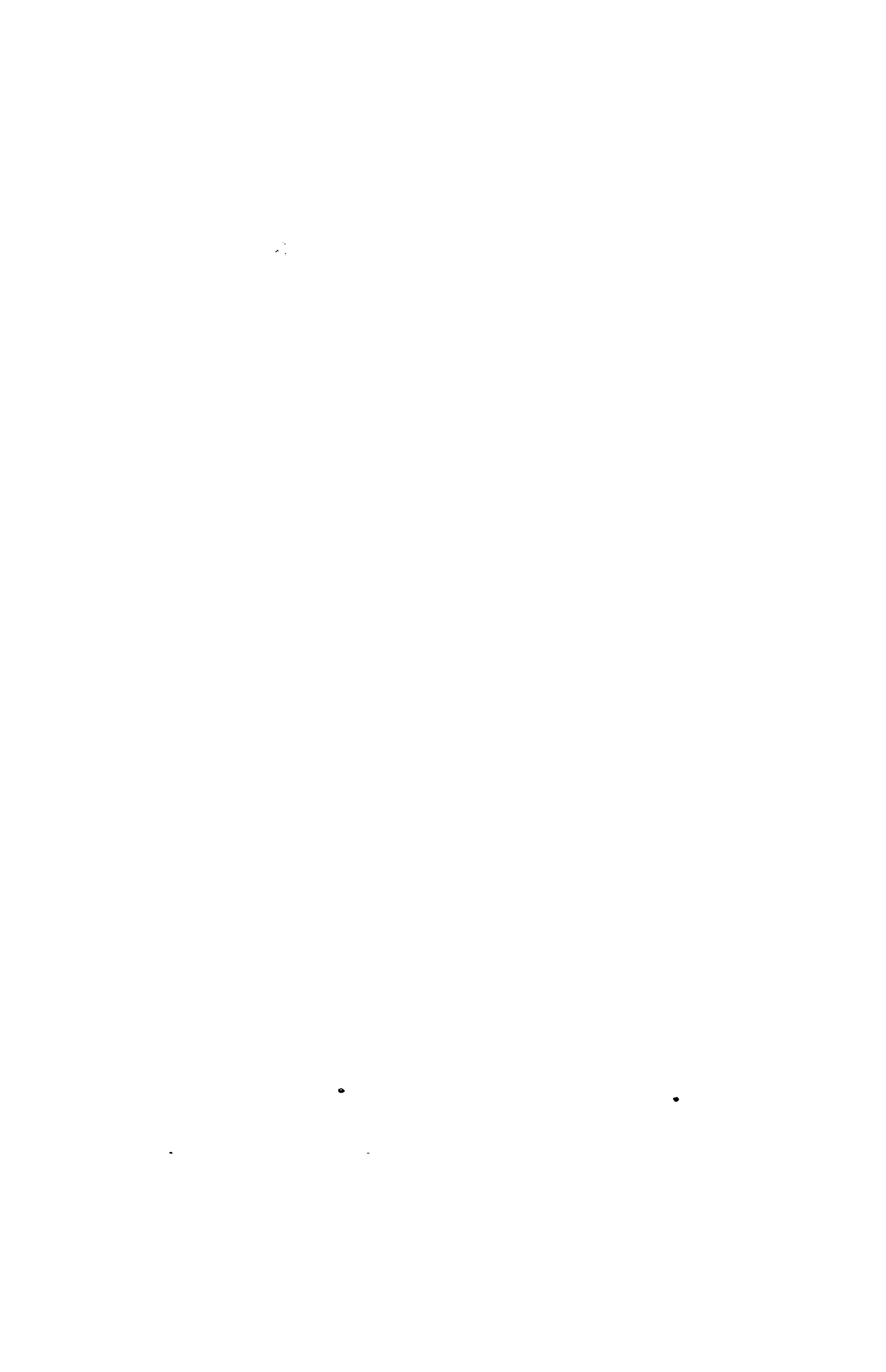
٣٠ مايو ١٩٥٥

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٥٥



فقيد العالم الإسلامى المغفور له الدكتور أحمد أمين

أول أكتوبر سنة ١٨٨٦ — ٣٠ مايو سنة ١٩٥٤



المملكة المصرية

جامعة فؤاد الأول

بناء على اقتراح مجلس كلية الآداب بتاريخ ١٧ ديسمبر سنة ١٩٤٧

قرر مجلس الجامعة بتاريخ ١٥ فبراير سنة ١٩٤٨ منح حضرة صاحب العزة

أحمد أمين بك درجة **الدكتوراه** الفخرية في الآداب

من كلية الآداب تقديرا للخدمات التي أداها للكلية .

القاهرة في يوم الاثنين : الحادي عشر من جمادى الأولى سنة ١٣٦٧ هجرية ـ الموافق الثاني والعشرين من مارس سنة ١٩٤٨ ميلادية

عميد كلية الآداب	مدير الجامعة	الرئيس الأعلى للجامعة

سجلت بسجل الدرجات الفخرية بجامعة فؤاد الأول برقم ٤٤



فهـــرس (*)

(*) وضعت هذه المقالات فى الكتاب حسب الحروف الأبجدية لأسماء أصحابها .

والدنا العزيز

وقفتَ حياتك على تربيتنا ، وتهذيب الجيل فى أشخاصنا ، ونشرتَ على الناس « إلى ولدى » نموذجا فى التثقيف يحتذى مثاله .

عشتَ حياتك للفكر الخالص ، توجه أبناء الأمة نحو الخير والعلم ، فكنتَ مفكر الشرق وحكيم الإسلام .

ولن نستطيع — نحن أبناءك — أن نفى بفضلك ، فهذه أقلام أصدقائك — أعلام مصر والبلاد العربية — تنوب عنا بالحديث عنك بعد وفاتك بعام ، ولهم منا على كلماتهم جزيل الثناء ، وإنها لكلمات تعبر عن الود والصدق والوفاء .

أبناؤك

صفحة حياتي

[طلب مجمع اللغة العربية من أحمد أمين نبذة عن حياته تحفظ فى ملفات المجمع ؛ فكتب بقلمه الكلمة الموجزة التى ننشرها هنا بتمامها . وهذه الكلمة كتبها عام ١٩٥٠ وقد جرت العادة بأن يكتب العضو عن نفسه بصفة المجهول] .

ولد بالقاهرة فى أول أكتوبر سنة ١٨٨٦ وابتدأ دراسته بكتاتيب مختلفة بمدرسة والدة عباس الأول الابتدائية (المسماة الآن بنبا قادن) ثم الأزهر ثم مدرسة القضاء الشرعى فنال العالمية سنة ١٩١١ .

عين مدرسا بمدرسة القضاء الشرعى فى نفس السنة إلى سنة ١٩١٣ ، فعين قاضيا فى محكمة أسيوط الشرعية ومنها انتدب لمحكمة الواحات الخارجة و بقى بها ثلاثة أشهر . ثم عاد مدرسا بمدرسة القضاء إلى سنة ١٩٢١ . فعين قاضيا فى محكمة طنطا وانتدب لمحكمة قويسنا الجزئية ، ثم انتقل إلى مصر وانتدب لمحكمة طوخ الجزئية ، ثم انتدب لمحكمة الأزبكية وظل بها إلى سنة ١٩٢٦ ، حيث عين مدرسا فى كلية الآداب بجامعة فؤاد ، فأستاذا مساعدا ، فأستاذا ، فعميدا سنة ١٩٣٩ فأستاذا إلى أن أحيل على المعاش فى أول أكتوبر سنة ١٩٤٦ وفى أول يناير سنة ١٩٤٧ عين مديرا للإدارة الثقافية بالجامعة العربية إلى اليوم .

نال البكوية سنة ١٩٤٠ وفى نفس السنة عين عضوا بالمجمع اللغوى ، وفى سنة ١٩٤٨ نال الدكتوراه الفخرية وجائزة فؤاد الأول وفى أثناء أستاذيته بكلية الآداب اختير نحو عشر سنوات عضوا : لمجلس جامعة فؤاد الأول وفى سنة ١٩٤٥ مديرا لإدارة الثقافة بوزارة المعارف مع عمله فى الكلية .

وفى سنة ١٩١٤ أسس لجنة التأليف والترجمة والنشر واختير رئيسا لها من يوم تأسيسها إلى يوم وفاته . وفى سنة ١٩٤٥ حينما كان مديرا للإدارة الثقافية بوزارة

المعارف فكر فى إنشاء الجامعة الشعبية .أسست، وكوّن لها مجلس إدارة كان رئيسه بعد ذلك التاريخ .

واختير سنة ١٩٣٩ عضوا للمجلس الأعلى لدار الكتب ، وفى سنة ١٩٤٥ عضوا للمجلس الأعلى للمعلمين ، وفى سنة ١٩٤٩ اختير عضوا بمجلس كلية دار العلوم وكذلك عين أستاذاً غير متفرغ فى كلية الآداب وعضوا فى مجلس كليتها .

وابتدأ اتصاله بالصحافة سنة ١٩٣٤ فى الرسالة والثقافة (وكان مديرا لها) ثم مجلات دار الهلال . وكذلك بدأ اتصاله بالإذاعة المصرية و إذاعات الشرق الأدنى ولندن العربية .

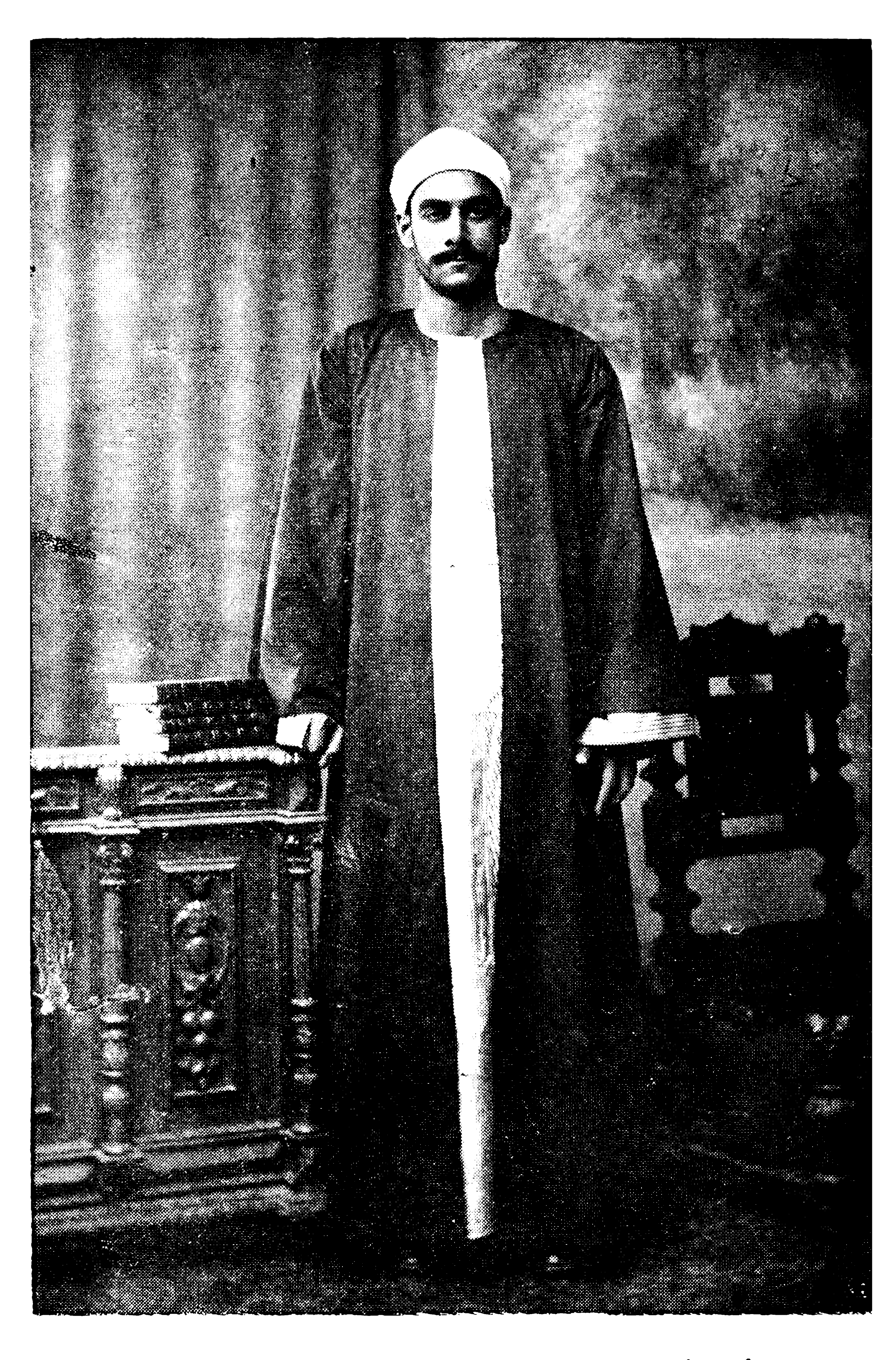
وفى سنة ١٩١٨ ترجم كتاب مبادئ الفلسفة . وفى سنة ١٩٢٢ ألف كتاب الأخلاق . ثم فجر الإسلام وضحى الإسلام (٣ أجزاء) وظهر الإسلام (٤ أجزاء) وله قصة الفلسفة اليونانية وقصة الفلسفة الحديثة مع الأستاذ زكى نجيب محمود ، واشترك فى كتب مدرسية مثل المنتخب والمفصل ، ثم اشترك فى نشر كتاب الإمتاع والمؤانسة والعقد الفريد ، ثم ألف كتاب قصة الأدب فى العالم مع الدكتور زكى نجيب محمود فى ٤ أجزاء ثم كتاب فيض الخاطر وهو مقالات فى ٩ أجزاء ، ثم كتاب زعماء الإصلاح فى العصر الحديث وحياتى وقاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية وكتاب الشرق والغرب .

* * *

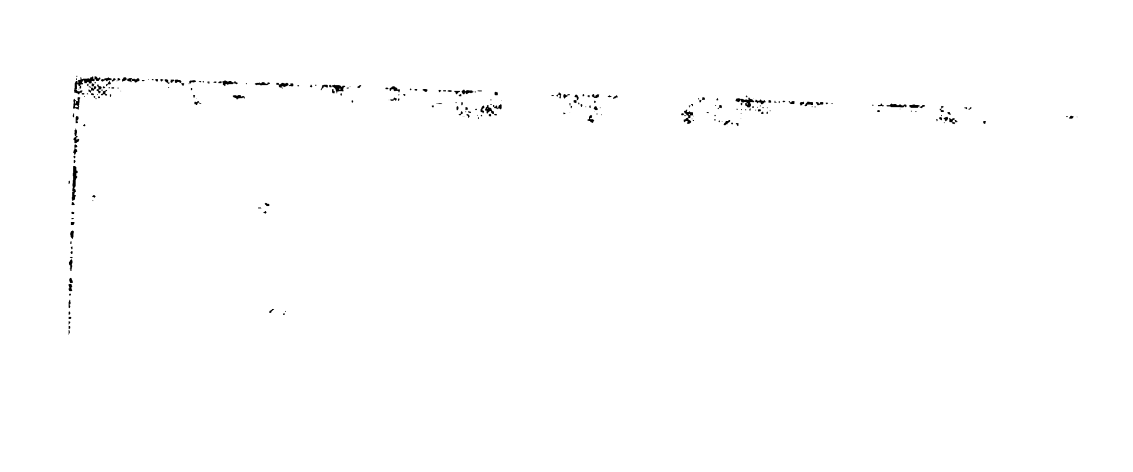
وتوفى يوم الأحد ٢٧ رمضان سنة ١٣٧٣ الموافق ٣٠ مايو سنة ١٩٥٤ .

وأطلق اسم أحمد أمين على أحد شوارع مصر الجديدة ، وخصصت جائزة باسمه تمنح كل عام لأول الحائزين على ليسانس الآداب من قسم اللغة العربية بجامعة القاهرة . وهذه الجائزة مجموعة كاملة من كتبه .

ومكتبة أحمد أمين الآن فى إحدى قاعات المؤتمر الإسلامى تحمل اسمه وهى مفتوحة الأبواب لكل من يرغب فى الاطلاع عليها .



أحمد أمين مدرسا بمدرسة القضاء الشرعى سنة ١٩١٦



صورة من حياتى

[كتب أحمد أمين حين أخذت له الصورة المنشورة مع هذا ، فى ظهرها ، هـذه الصفحة التى تعد صورة قلمية يعبر فيها عن نفسه بأوضح من الصورة الشمسية]

هذه صورتى أخذت فى يوم الجمعة ٧ إبريل سنة ١٩١٦ وسنى تسع وعشرون سنة وستة أشهر عقب عقد زواجى بأربعة أيام . وقد اتخذت الـكتب شعاراً فوضع المصور بجانبى الأيمن كتباً من عنده وكان بيدى اليسرى كتاب بالإنجليزية عنوانه « مبادىء الفلسفة » ، وكنت قد اشتغلت بتعريبه مع أحد إخوانى وهو على وشك الانتهاء . وقد لاحظت فى الصورة البساطة غاية الجهد ، فلم أعمل شيئاً إلا اختيار الملبس وهو اللباس الذى اخترته يوم عقد الزواج ، وربما كان من أكبر الأسباب الباعثة على التصوير اعتقادى أنى أنهيت شكلا من أشكال الحياة ، وهو المعيشة الفردية ، وابتدأت نوعا آخر من المعيشة ، وهو عيشة الزوجية ، له تأثير فى النفس والجسم كبير ، وربما تبينت الفرق بين أثر المعيشتين إذا كان لى من الأجل متسع فصورت مابعد الزواج ، ومن البواعث أيضاً علمى بأن السنة المتممة ثلاثين سنة تختم حياة الصبا والفتوة ، وهى فاتحة حياة يغلب فيها عمل العقل والروية على أنى — والأسف ملء الفؤاد — لم أنتفع بزمن الصبا كما أود ، فلم يجد المرح والنشاط ولا اللهو ولا الحب لقلبى منفذا ، بل تشايخت قبل أوان الشيخوخة ، وهو ولا شك أثر التربية المنزلية فقد كانت تربية أساسها التخويف والإرهاب ، ولم أكن محوطا بفرح وسرور فى المنزل . وإنى هذه السنة أحس بميل إلى الحركة وحب للنشاط على أثر درسى الإنجليزية على سيدة إنجليزية عجوز ، كانت تصلح من نفسى كما تصلح من لسانى ، فكانت تخاطبنى كثيرا بقولها « تذكر أنك شاب » وكانت تنتقد فىَّ الهدوء وسكينة الشيخ — وقد تغير كثير من آرائى وأخلاقى إلى خير ، ويرجع

ذلك إلى عوامل ، أهمها : تعلم اللغة الإنجليزية وما كان يدعو إليه من مخالطة انجليزيتين راقيتين خلقاً إحداهما عجوز والأخرى فتاة متزوجة . وثانيها : دروس الأخلاق مع مخالطة ناظر مدرسة القضاء عاطف بك بركات . ومما أحس به أيضاً أننى الآن أكبر حرية فى الفكر ، كثير النقد ، لا أتحرج من انتقاد بعض المسائل الفقهية وما يتبعها . وأكثر ميلى هذه السنة إلى القراءة فى علمى الاجتماع والأخلاق مع ما أجد من الصعوبة لقرب عهدى بتعلم الإنجليزية ، فقد بدأت فى تعلمها فى يناير سنة ١٩١٤ ، فلى نحو سنتين ونصف أتعلمها ، وأنا الآن مدرس بمدرسة القضاء مرتبى ١٣٢٠ قرشاً ، ولم أمل التدريس ولا أمل التدريس ولا زلت أفضله على القضاء . وأنا أرجو من الله أن يعيننى على القيام بعمل عظيم لأمتى من الجهة الخلقية والاجتماعية .

كتب فى ٢٠ يونيه سنة ١٩١٦ .

أحمد أمين

صورة من حياتي

هذه صورتي أخذتها في يوم الجمعة ٧ أبريل ١٩١٦ وسني تسع وعشرون سنة وستة أشهر عقب عقد زواجي بأربعة أيام وقد أخذتها بطلب شديد فوضع المصور بجانبي الأيمن كتابا من عنده وكان بيدي اليسرى كتاب بالانجليزية عنوانه «مبادئ الفلسفة» وكنت قد اشتغلت بتعريبه مع أحد إخواني وهو على وشك الانتهاء. وقد لاحظت في الصورة البساطة غاية الجهد فلم أتكلف شيئا في اختيار الملبس وهو اللباس الذي اخترته يوم عقد الزواج - وربما كان من أكبر الأسباب الباعثة على التصوير اعتقادي أني أنهيت شكلا من أشكال الحياة وهو العيشة الانفرادية وابتدأت نوعا آخر من العيشة وهو عيشة الزوجية لها تأثير في النفس والجسم كبير وربما تبينت الفرق بين أثر العيشتين إذا كان لي من الأجل متسع فصورت بعد الزواج ومن الباعث أيضا على ذلك أن السنة الثلاثين تختم حياة الصبا والفتوة وهي فاتحة حياة يغلب فيها عمل العقل والروية على أني - والأسف يملأ الفؤاد - لم أتمتع بزمن الصبا كما أود فلم أجد المرح والنشاط واللهو واللعب لطبيعتي منفذا بل شاخت قبل أوان الشيخوخة وهو ولا شك أثر التربية المنزلية فقد كانت تربية أساسها التخويف والإرهاب ولم أكن أحظى بفرح وسرور في المنزل. وأني هذه السنة أحس بميل إلى الحركة وحب النشاط ولعل ذلك أثر درسي الانجليزية على سيدة انجليزية عجوز كانت تصلح من نفسي كما تصلح من لساني فكانت تخاطبني كثيرا بقولها «تذكر أنك شاب» وكانت تنتقد فيّ الهدوء وسكينة الشيخ - وقد تغير كثير من آرائي وأخلاقي إلى خير ويرجع ذلك إلى عوامل أهمها تعلم اللغة الانجليزية وما كان يدعو إليه من مخالطة انجليزيتين اقتبست خلقهما أحدهما عجوز والأخرى فتاة متزوجة وتأثير دروس الأخلاق مع مخالطة ناظر مدرسة القضاء عاطف بك بركات. ومما أحس به أيضا أني الآن أكثر حرية في الفكر كثير الشك لا أتحرج من انتقاد بعض المسائل الفقهية وما يتبعها - وأكثر ميلي هذه السنة إلى القراءة في علم الاجتماع والأخلاق مع ما أجده من الصعوبة لقرب عهدي بتعلم الانجليزية فقد بدأت في تعلمها في يناير ١٩١٤ على نحو سنتين ونصف تقريبا - وأنا الآن مدرس بمدرسة القضاء مرتبي ٢٠ ج ولم أمل التدريس ولا زلت أفضله على القضاء، وأنا أرجو من الله أن يعينني على القيام بعمل عظيم في الأعلى من الحياة العقلية والاجتماعية. كتب في ٢٠ يوليه ١٩١٦

احمد امين

مؤلفات أحمد أمين

	الكتاب	الناشر
(١)	فجر الإسلام	(الناشر مكتبة النهضة)
(٢)	ضحى الإسلام (٣ أجزاء)	(» » »)
(٣)	ظهر الإسلام (٤ أجزاء)	(» » »)
(٤)	يوم الإسلام	(» دار المعارف)
(٥)	حى بن يقظان	(» » »)
(٦)	قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية	(» مكتبة النهضة)
(٧)	زعماء الإصلاح فى العصر الحديث	(» » »)
(٨)	الأخلاق	(» لجنة التأليف)
(٩)	حياتى	(» مكتبة الآداب)
(١٠)	فيض الخاطر (٩ أجزاء) وهو مجموع مقالات أدبية واجتماعية وسياسية	(» مكتبة النهضة)
(١١)	الشرق والغرب	(الناشر مكتبة النهضة)
(١٢)	النقد الأدبى (جزءان)	(» لجنة التأليف)
(١٣)	هارون الرشيد	(» دار الهلال)
(١٤)	الصعلكة والفتوة فى الإسلام	(» دار المعارف)
(١٥)	المهدى والمهدوية	(» » »)
(١٦)	إلى ولدى	(» مكتبة الآداب)

كتب بالاشتراك :

(١٧) قصة الفلسفة اليونانية (مع الدكتور زكى نجيب محمود)
(الناشر لجنة التأليف)

(١٨) قصة الفلسفة الحديثة (مع الدكتور زكى نجيب محمود)
(الناشر لجنة التأليف)

(١٩) قصة الأدب فى العالم (٤ أجزاء) (مع الدكتور زكى نجيب محمود)
(الناشر مكتبة النهضة)

كتب اشترك فى نشرها :

(٢٠) الإمتاع والمؤانسة

(٢١) ديوان الحماسة

(٢٢) العقد الفريد

(٢٣) الهوامل والشوامل

(٢٤) خريدة القصر وجريدة العصر

كتب مترجمة :

(٢٥) مبادئ الفلسفة (الناشر لجنة التأليف)

كتب مدرسية :

(٢٦) المنتخب من الأدب العربى

(٢٧) المفصل فى الأدب العربى

(٢٨) المطالعة التوجيهية

(٢٩) تاريخ الأدب العربى

أحمد أمين

حياته ، بقلم أصدقائه



أحمد أمين ... المربى

بقلم الدكتور

إبراهيم بيومى مدكور

إن ثقافة أحمد أمين من تلك الثقافات الخصبة المتعددة الألوان ، فكان أديبا ولغويا ، فقيها ومحدثا ، مؤرخا ومحققا ، أخلاقيا واجتماعيا ، فيلسوفا ومتصوفا . وقد كتب فى كل هذا ، وخلّف آثاراً قيمة . وهو دون نزاع من أوسع مفكرينا المعاصرين ثقافة ، وأفسحهم مجالا ، وأبعدهم آفاقا . ولم يكن غريبا أن يوكل إليه أمر الثقافة العامة إنْ فى وزارة المعارف أو الجامعة العربية ، وبقى يتعهدها حتى النفس الأخير بفكره وعمله ، وصوته وقلمه . ولجنة التأليف والترجمة والنشر ، وهو منها بمثابة الروح من الجسد ، آية كبرى من آيات إيمانه بالعلم والثقافة .

وهناك ناحية أخرى تعتبر — فيما نعتقد — نقطة البدء فى حياته العقلية كلها ، ونعنى بها التربية ، وعن طريقها امتد به البحث إلى شتى النواحى . ولم يكن بد من أن يكون أحمد أمين مربيا ، فقد أخذ عن أبيه الوعظ والإرشاد والترغيب والترهيب ، وهى إحدى وسائل التربية . ثم تتلمذ لعاطف بركات ، أحد أئمة المربين المصريين فى نصف القرن الأخير . ولا نظن أنَّ من بين أبناء القضاء الشرعى من أخذ عن عاطف أخذه ، أو تأثر به تأثره . تزاملا زمنا ، وشُغِفا بالمعهد الذى التقيا فيه حبا ، وأرادا أن يجعلا منه مدرسة مثالية ، لا تخرج علماء وباحثين فحسب ؛ بل رجالا لهم شخصيتهم واستقلالهم . وعلى هـذا كان

لا بد أن يوكل أمرها إلى أمهر المربين وأكفئهم ، وأن يختار لها أحسن الطلاب وأصحهم .

وقد بلغ به ولعه بالتربية أن ضحى فى سبيلها بكرسى القضاء الذى أعدّ له وهَدَف إليه ، بالرغم من أنه كان مرموقا عظيم المنزلة يتمناه زملاؤه وأنداده . فلم يمكث فيه إلا وقتا قصيرا ، ثم عاد مسرعا إلى مدرسة القضاء مشرعى يربى ويعلّم، ويؤدب ويهذب . وما إن ظهر التعليم الجامعى الأميرى حتى كان من بناته ومؤسسيه ، فقام على أمر كلية الآداب بالجيزة — فيمن قاموا — أستاذا وعميدا .

ولم تكن التربية فى رأيه مجرد درس يلقى ومعلومات تشرح ، بل حرص الحرص كله على أن تكون تفتيحا للذهن وإيقاظا للانتباه والملاحظة ، وتعهدا للسلوك وتقويما للأخلاق ، فكانت تربيته فكرية وروحية . ولم يمنعه زيه وبيئته من أن يساهم فى التربية البدنية ويدعو إليها ما وسعه ، وكم نقم على الأزياء المصرية عامة وبعدها عن الانسجام والتناسق .

ولم تكن التربية عنده أيضا مقصورة على التلاميذ والطلاب ، بل أراد بها أن تكون عامة شاملة تصوّب إلى الشعب بأسره ، وتغذى المجتمع كله . وقصد إليها عن طريق الأندية والصحافة اليومية والأسبوعية ، بما كان يقدم من أحاديث ومحاضرات ، أو ينشر من خطرات ولمحات ونقد وتعليق ، ولا زلت أذكر مقالة مقاله الذى نشر فى « السفور » منذ خمس وثلاثين سنة تحت عنوان : « سياحتان فى مكتبتين » . وهو فى كل هذا يحلل التقاليد والعادات ، ويناقش الذوق والعرف ، ويقارن الشرق بالغرب ، ويوازن بين الحاضر والماضى ، ويرمى إلى وضع دعائم تربية اجتماعية استقلالية .

* * *

وإذا كان لم يكتب عن التربية فى استقلال ، فإنه عرض لها فى كثير من كتبه ورسائله . ويمكن أن يرد منهجه التربوى إلى أصول ثلاثة : القدرة العملية ، والاتصال المباشر ، والتبصير بشئون الحياة .

فأما القدرة العملية فكان يؤمن بها الإيمان كله ، ويقدر ما لها من أثر فعال ، ويتلمسها فى الحاضر والماضى . وقد ضرب له منها عاطف بركات أمثلة كثيرة حية ، وحرص هو أيضاً على أن يقدِّم لتلاميذه أمثلة أخرى متعددة . وأشهد أنه كان قدوة صالحة ، يعنى بدقائق الأمور عنايته بعظائمها ، فيلحظ نبرات الصوت وطرق الأداء كما يتحرى عن الأفكار ويدقق فيها . وينفر من العورات والأمور الخاصة ويستنكر التعرض لها ، وأذكر أنه أغفل « باب الاستنجاء » وإن كان جزءاً من مقرر الشريعة ، وأبى أن يدرسه . لم يناقض قط عمله قوله ، ولم يتردد يوماً فى أن يجاهر بما كان يؤمن به ، وأصدقاؤه وتلاميذه يعرفون مواقفه فى الحركة الوطنية ، فكان سباقا إلى الإضراب إن رأى ضرورته ، وداعياً إلى العمل والدرس إن اقتضت المصلحة ذلك .

ولم يقنع بقدرة الحاضر ، بل كان يبحث عن قدرات مختلفة فى الماضى . ولذا أولع بتحليل كبار الشخصيات ، راجياً أن يبرز فيها ما يمكن أن يحتذى . وقد التزم هذا حتى فى دراساته التاريخية الواسعة « كضحى الإسلام » ، فختم كل فصل بالتأريخ لشخصية كبرى فى موضوعه . وما ذاك إلا لأنه كان يرى أن الفكرة تبدو أوضح على لسان قائلها ، والعقيدة أقوى فى شخص معتنقها . وإن فى هذا لدرساً ما أحوجنا أن نفيد منه ، لا سيما وقد أضحت وسائل تربيتنا آلية تعنى بالكم أكثر مما تعنى بالكيف ، وتكاد تغفل أمر القدرة العملية وما لها من أثر .

وأما الاتصال المباشر فوسيلة الفهم والتفاهم ، وسبيل الارتباط النفسى والامتزاج الروحى . بيد أنه ليس فى متناول الجميع ، وقد يعز على بعض الأشخاص . وأحمد

أمين كما نعلم كان متصرفا فى قرارة نفسه ، يطمئن إلى الخلوة ، ويلذ له التأمل الهادئ وتفكير المتوحد ، وفى خلوته المنتجة أخرج لنا من مؤلفاته الكبرى .

ومع هذا كان يحرص على الاتصال بالناس بقدر ما يرى فى ذلك من أداء رسالة وتحقيق معنى من معانى التربية . فكان بيته مفتوحا لتلاميذه وأصدقائه ، وكانت جلسة لجنة التأليف الأسبوعية مقدسة لديه ، فلم يتخلف عنها إلا فى القليل النادر . ورواد هذه الجلسة يدركون ما كان يثار فيها من درس و بحث ، و يقدرون ما كان لها من أثر فى تبادل الأفكار والمشاعر . وكم كان أحمد أمين يتمنى — مع أستاذه عاطف — أن يكون له على من يتصل بهم نفوذ مشايخ الطرق فى حكمة الفلاسفة . وعن طريق اتصاله المباشر استطاع أن يخلق مدرسة و يكون رجالا .

وكان يرى أخيرا أن التربية الحقة هى تلك التى تبصر الشبان بشئون الحياة وتعدهم لها ، وهذا ولا شك من أحدث الآراء التربوية وأقواها . فلم يقف مع التلاميذ والطلاب عند شرح القوانين والنظريات العلمية ، بل أضاف إليها معالجة المشاكل الحاضرة ، سياسية كانت أو اجتماعية ، أدبية كانت أو أخلاقية . وطريقته فى ذلك أخاذه نافذة تستولى على الأسماع وتملك الأفئدة ، وقد وصل به الأمر فى أحد الأعوام الدراسية أن وقف حصة أسبوعية على التبصير بشئون الحياة ، وكنا نسميها حين ذاك حصة « المربة » ، واسمها وحده كان للتدليل على ما كانت تشتمل عليه من حلاوة وطلاوة ولا أغلو إن قلت إن هذا الدرس كان أجدى وأفعل فى إعداد الشباب من دروس علمية كثيرة .

وواجب أن تبقى المدرسة دائما وثيقة الصلة بالمجتمع تردد أصداءه وتعدله . والحكمة كل الحكمة فى أن نتعهد هذه الصلة ونرعاها ، و بذا نعيش فى جيلنا وله . ورحم الله أحمد أمين الذى كان شعاره : اكتب وفكر بلغة العصر وروحه .

أحمد أمين ... الأديب

بقلم الأستاذ

أحمد حسن الزيات

رحم الله صديقي أحمد أمين ! لقد كان فى أعقاب عمره دنيا من العلم والأدب ، فى هيكل بال من العضل والعصب ! ومن الصعب على نفسى وقد صادقته أربعين سنة متتابعة أن أقول فى الدعاء له : (رحم) ولا أقول : (حيا) ؛ وأن أستعمل فى الإخبار عنه (كان) ولا أستعمل (هو) . وعسى أن يكون من بعض عزائنا عنه أننا ما زلنا نعيش معه فى كتبه ، ونتصل بروحه فى أدبه . ولعلك لا تجد تلازما بين شيئين أشد مما هو بين أحمد أمين وما يكتب . فقد كان إذا ألف كتاباً أو أنشأ مقالا أو ترجم فصلا ظل باقياً وراء كلماته وخلال سطوره ، يعرض عليك الصور ، ويقرر لك الآراء ، بطلعته الباسمة فى غير افترار ، ولهجته الحازمة فى غير أمر ، وعقله القوى فى غير صلف ، وطبعه الحيىّ فى غير ضعف ، وأسلوبه الهادئ فى غير فتور ، فلا تدرى أتقرأ أم تسمع ، وكتاب فى يدك أم رجل معك .

نشأ أحمد أمين نشأة أزهرية . وأعنى بهذه النشأة ما يلازمها من نمط خاص فى الحياة والتربية والدراسة والوجهة . ومن غريب هذه النشأة أنها تساعد على الهبوط ، كما تساعد على الصعود . فمتخرجو الأزهر فى عهده القديم كانوا إما قادة للشعب وإما حميلة عليه ؛ لأن حرية التعليم فيه كانت تهيئ كل نفس لما خلقت له . فهذا تعده ليكون قارئاً فى ضريح أو إماما فى جامع ، وذاك تعده ليكون مستشاراً فى محكمة أو أستاذاً فى جامعة . وأحمد أمين كان كمحمد عبده وسعد زغلول قد زوده الأزهر بخير ما فيه من صبر على الدرس ، واتكاء على النفس ، واستقصاء

لأطراف البحث ؛ ثم دفعه إلى الحياة دفعاً ، فاستكمل ثقافته فى مدرسة القضاء الشرعى ، ثم اشتغل بالتعليم ، ثم تولى الحكم بين الناس فى المحاكم الشرعية ، ثم ثقف على نفسه اللغة الإنجليزية ، ثم تبوأ كرسيه فى الجامعة المصرية وفى مجمع اللغة العربية ، ثم احتل بمؤلفاته مكان الزعامة العلمية .

لست بصدد الحديث عن نواحى العبقرية فى حياة الفقيد وملكاته ومؤلفاته ؛ وإنما هى كلمة موجزة فى طبيعة أدبه أكتبها فى يوم ذكراه ، تحية وفاء ألقيها على روحه ، وطاقة زهر أضعها على قبره .

كان أحمد أمين متضلعاً من علوم الدين واللغة ، كأكثر النابغين من المتخرجين فى الأزهر ؛ ولكنه كان من الأزهريين القلال الذين أوتوا دقة النظر ، وحرية الفكر ، وسعة الأفق . فكان فى الدين صاحب اجتهاد ، وكان فى اللغة صاحب رأى .

كان يرى أن الدين دستور للدنيا ، فلا بد أن يتطور مع العلم وأن يتقدم مع الحضارة . وكان يرى أن اللغة أداة للفهم ، فلا بد أن تُطوع لألسنة الناس وأن تجدد على طول الزمن . وكان رأيه فى الأدب قائماً على رأيه فى الدين ورأيه فى اللغة .

فالأدب تفكير مستمر يتأثر بالفكر العام ويؤثر فيه . والأدب تعبير متجدد يصور المجتمع الحاضر ويترجم عنه . فطبيعته المرونة لا الجمود ، وغايته الحق لا الجمال ، وعدته الانطلاق لا الفن . ذلك لأنه كان من الكتاب العقليين الذين يزاولون الكتابة عن علم لا عن سليقة ، ويتخذون الأدب وسيلة لا غاية .

كان همه من الكتابة أن يقرر ويقنع ، لا أن يؤثر ويمتع . ولعل منشأ ذلك فيه أن عقله كان أخصب من خياله ، وأن علمه كان أكبر من فنه ، وأن حبه للحرية والصراحة كان يحبب إليه إرسال النفس على سجيتها من غير تقييدها

بأسلوب معين ، وعرض الفكرة على حقيقتها من غير تمويهها بوشى خاص . ومع ذلك كان لأسلوبه طابعه المميز وجاذبيته القوية . تقرأه فلا تروعك منه الصور البيانية الأخاذة ، ولا الأصوات الموسيقية الخلابة ؛ وإنما تروعك منه المعانى المبتكرة الطريفة ، والآراء الصريحة الجريئة ، والشخصية القوية المهيمنة . فأنت منه بإزاء عالم يبحث لينتج ، أو مصلح يصف ليعالج ، لا بإزاء مصور يلون ليعجب ، أو موسيقار يلحن ليطرب .

على أنه كان يتوخى الجمال أحيانا فى الأسلوب بحكم الأثر الذى تركته فيه درايته للقرآن والحديث ، وروايته للشعر والنثر ، ودراسته للبيان والنقد ، فيجمع بين حسن الفكرة وجمال الصورة ، ويلائم بين وزانة المعنى ورصانة اللفظ . وربما كان ذلك أظهر ما يكون فى كتابه (حياتى) ؛ فإن فى تصويره البيت والسقاء والمحدث والكتّاب والأزهر ، وفى وصفه لأبويه وأخويه وصديقيه عبد الحكيم محمد وعلى فوزى ، وأستاذيه عاطف بركات ومس بور ، لنماذج من البيان المطبوع الذى يشرق بنور العقل ، وينبض بروح العاطفة ، ويزهو بألوان الفن .

* * *

ذلك أحمد أمين الأديب بالمعنى الأخص للأدب : أما أحمد أمين بمعنى الأدب الأعم فقد كان أعظم شأنا وأبلغ أثرا وأرفع مكانة . وحسبه أنه حلل الحياة العقلية للعرب والمسلمين فى كتبه : فجر الإسلام وضحاه وظهره ، تحليلا لم يتهيأ مثله لأحد من قبله . وستظل هذه الكتب الخالدة شاهدة على الجهد الذى لم يكل ، والعقل الذى لم يضل ، والبصيرة التى نفذت إلى الحق من حجب صفيقة ، واهتدت إليه فى مسالك متشعبة .

لقد كان أحمد أمين ناجحا فى حياتيه العلمية والعملية . وكان نجاحه فيهما نجاحا للجد وفوزا للفضيلة ؛ لأنه لم يعتمد فى شهرته العلمية على الإعلان

(٢)

والتهويش ، ولا فى مناصبه الحكومية على الاستخذاء والملق . و إنما كان يجرى فى عمله على الإخلاص ، وفى معاملاته على الحق ، وفى علاقاته على الشرف ، بالنصيب الأوفر مما يطيقه الإنسان الخاضع بحكم طبيعته لآثار الوراثة والبيئة والظروف . وما كانت حياته الحافلة إلا مثلا للحياة العاملة فى غير ضجيج ، الناصبة فى غير ملل ، المثمرة فى غير غرور ولا دعوى . فكانت أشبه شىء بالنبع السلسال العذب ، يسيل حلو الخرير تحت شواجن الأدغال وفوق مطمئن الأرض ، فيروى العطاش و يمرع السهول فى غير هدير ولا صخب .

جعل الله روحه للخلد كما جعل ذكره للخلود ، وعوض الأدب والعرب من فقده خير العوض .

أحمد أمين ... الصديق

بقلم الدكتور

أحمد زكي

ما أعجب مسالك الناس فى هذه الحياة ، وما أعجب الأسباب التى يلتقى بها الناس فى مسالك الحياة . إنه ليس يكفى أن تتقابل الوجوه حتى يتم التقاء . وكم مرّة مس كتفك كتف رجل فى الطريق ، أو حتى صافحت يدك يد رجل فى الطريق وغير الطريق ، ثم انتفى أثر ذلك من اللوح المرقوم ، كالقلم تخط به فى الماء ، لا يكاد أن يكون له أثر فى الماء حتى ينتفى . وقد تخطّ به فى الرمل ، فيبقى الأثر بمقدار ما تهدأ الريح ، ثم تسفوه فكأنه ما كان .

لم يكن لقائى بأحمد أمين ، أول الأمر ، لقاء عابرا ثم توثق ، كان لقاء تدعمه وشيجةٌ من وشائج الأرحام .

* * *

وأنظر اليوم فى التاريخ البعيد ، إلى الوراء ، عشرة من السنين فعشرة ، فاثنتين أخرى من العشرات أو ثلاث ، استشف فى ضباب تلك السنين الماضية كيف لقيت أحمد أمين أول مرّة ، فأذكر أنى صبى ، وأذكر أن والدى جاءنى يقول لى ستكون فى صحبتى اليوم فى زيارة عمك ، فى القلعة ، فى منزل الشيخ إبراهيم ، وأحمد أمين — لو كمل اسمه — لكان أحمد أمين إبراهيم . وذهبت معه ، ورأيت القلعة ، وأحسب أن تلك كانت أول رؤية لها . ومن القلعة دلفنا إلى مسجد الشيخ الرماح . ومن المسجد دلفنا إلى حارة من حارات مصر التى كانت فى تلك الأيام مأوى الناس حين يسكنون ويريحون . والحارة طويلة

ظليلة ، ساكنة هادئة ، يغلب عليها الظلام أكثر ما يغلب النور لضيق فى مسلكها ، وطول فى مساكنها . ثم نقف ، أنا ووالدى ، عند نهاية الحارة المسدودة ، أو ما كاد أن يكون نهايتها ، عند بيت ارتش الماء أمامه . ودخل والدى ودخلت وراءه ، فوجدنا الشيخ فى حجرة إلى اليمين وقد جلس يقرأ ، ووجدنا أولاده ، قد تفرقوا فى حجرات الدار السفلى ، كذلك يقرأون . والقراءة منها المسموع ، ومنها الخفيض الذى لا يسمع . وهى لا شك كانت قرآنا ، أو كانت فيما اتصل بالقرآن من حديث أو فقه ، فالكتب كانت صفراء . وكذلك الجو وسكونه فى الدار ، مع شدة الظل فيها ، كان يوحى بأن الدراسة كانت من الجد بحيث أنها لم تسمح بدخول الكثير من النور . وخُيل إلى أن هذا الشيخ الجالس ، فى تلك الحجرة اليمينية ، لا يفتأ يرقب ما يجرى فى ردهة الدار وحجراتها من دراسة ، وأن طاعة أبنائه له لم تكن طاعة بنوّة فحسب ، بل كانت فوق ذلك ، وأكثر من ذلك ، طاعة تلمذة لمعلم ، على الرغم من هدوئه وتوقّره ، صارم .

وانتهت الزيارة وما أحسب أنى فى هذه المرّة عرفت من أحمد أمين شيئا ، إلا أنه أحد إخوة ثلاثة ، يكبرونى ، أنا الصبى ، بنحو عشرة من السنوات فما فوقها ، وأنهم طلبة أزهريون ، لأب أزهرى عالم تقى نابه . . . صارم .

* * *

وأغوص فى التاريخ مرّة أخرى ، فأجدنى ، بعد تلك الزورة الأولى فى حىّ القلعة ، بمنزلنا ، فى طرف من أطراف بولاق ، يطل على النيل . كان الوقت عشاء . وكنت فى حجرة ، أنا ووالدى ، نقرأ جميعا . هو يقرأ أدبا ، وأنا أقرأ علما ، وكانت مسائل فى الهندسة ، فأحسبنى كنت عند ذاك فى السنة الثالثة الثانوية ، بالمدرسة التوفيقية . ودق الباب ، ودخل علينا الشيخ أحمد أمين . جاء يزور والدى ، وكانت توثقت بينهما علاقة فكر . كان والدى ثائر الفكر ، شيخا . وكان أحمد أمين ثائر الفكر ، شابا . والتقى المزاجان . واطّلع أحمد أمين فى تلك الزيارة على

ما كنت أصنع ، ودخل فيما كان بين يدىّ من مسائل فى الهندسة عرفت منها أنى أمام شيخ غير من عرفت من أطرزة المشايخ . وحسبت أن أحمد أمين كان فى حديثه فى الهندسة ، فى تلك الزورة ، به بعض تيه ، بأنه ، وهو الشيخ المعمم ، يستطيع أن يجادل ولو صبيا مطر بشا فى علم من العلوم الحديثه التى ظل الأزهر يصفها إلى عهد حديث بأنها علوم « مما لا تسعه أفهامنا » . والذى تعلمه أحمد أمين من ذلك لم يكن قد تعلمه فى الأزهر ، ولـكن فى مدرسة القضاء الشرعى ، وعاطف بركات ناظرها .

وذهب الموت بوالدى ، و بقى أثر من والدى فى أحمد أمين ، حتى جاء الموت يطرق باب أحمد أمين . كانت ثورة والدى الفكرية قد تحولت فى شيوخته إلى عزوف عن الدنيا ، وقلة إيمان بمن خلق الله من الناس . وانتهى هذا العزوف بأن قطع والدى علائقه فى آخر أيامه بالناس ، و بأكثرهم قربا إليه . وأنس فى وحدته بالله . ونقد أحمد أمين ما صنع والدى ، حتى بلغ من الشيخوخة ما بلغه والدى أو قارب . ذكر لى فى سنته الأخيرة والدى ، قال : كنت أراه على غير حق فى قطيعة الناس ، واليوم لا أرى شيئا عندى أكره من الناس ، ولا أصوب فى هذه الدنيا من قطيعة ، ولا أروح ولا أصفى لبال المتأمل الزاهد . وأنا اليوم سائر فى سبيل سلـكه والدك من قبلى .

* * *

وأغوص فى التاريخ مرّة ثالثة ، هى غوصة أقل من الغوصتين السابقتين عمقا ، فأذكر أنى أسير والشيخ أحمد أمين ، على كوبرى بولاق ، نتنسم ما كان يهب من الشمال من ريح فى الصيف باردة . وكان معنا نفرٌ هم الأعضاء الأولون الذين منهم تكونت لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وعلى رأسهم أحمد أمين . وكانت الحرب العالمية الأولى قائمة . وكان أعضاء اللجنة مطر بشين ، إلا عمامة واحدة ، علوا بها

فوق الطرابيش ، للذى كان تحتها من رأس ناضج ، ومن قلب وقور حساس . وتأثر صاحب العمامة فيما تلا من السنين بأصحاب الطرابيش ، وتأثر أصحاب الطرابيش بصاحب العمامة ، واتصل هذا الأثر أربعين عاما كاملة . فقد ظل أحمد أمين رئيسا للجنة التأليف ، ينتخب بالإجماع عاما بعد عام، أربعة عقود من السنين ، انتهت بوفاته .

وتحولت بذلك الصداقة التى بيننا ، من صداقة أسرة ، إلى صداقة أسرة ممزوجة بصداقة عمل ، وصداقة أمل ، وصداقة جهاد .

* * *

وتنتهى الحرب العالمية الأولى ، وتقوم الثورة المصرية . فنرتب فيما بيننا ، و بين إخوان آخرين لنا ، المظاهرات ، ونرتب الهتافات . وأرانى ، أنا وهو ، على رأس فئة للمعلمين فى مظاهرة ، نحمل علما ضخما ثقيلا . أحمله فأتعب . فيحمله عنى ، وهو الشيخ ، حتى يتعب . وتركنا الهتاف لغيرنا . فلم نكن بحكم المزاج هتّافين . و بقى هذا المزاج فيه إلى أن مات ، وأحسبه باق عندى إلى مثل هذا المآل . وما هو قلّة إيمان بالحق ، ففى تلك المظاهرات الأولى كنا نسير والرصاص يجرى من فوق رؤوسنا . ولكن استحياء من أن يقال فلان وطنى ، و يكون ثمن ذلك صرخة ، هى من هواء ، يصرخ بها صارخ فى تظاهر عام قد يلتبس بالتظاهر الفردى الشخصى . وكم آذى هذا المزاج أحمد أمين فى حياته ، وكم آذانى . ومن هذا المزاج خشية الملق ، جعلته يحجم وأحجم عن كثير من الواجبات ، فى الكثير من المناسبات . وما هو إحجام عن حق ، أو عن مناصرة فى حق ، ولكن مغالاة فى الاحتفاظ بكرامة الإنسان .

إن الذى ألّف بين أحمد أمين و بينى مشاركةٌ فى الطبع ، هذا أحد أمثالها ، وكذاك وحدة فى الفكر . كان يقول وأقول ، فكأنما هو وتر فى جوقة يناغم وترا .

و يشكو وأشكو ، فيرتاح كلانا من بث الشكوى . أو يقول ما يسر وأقول ، فنغتبط جميعا بهذا السرور . وكم قال فكرة تبلورت عندى بعد قيام فكانت مقالة ، وكم قلت فكرة تبلورت عنده فكانت مقالة . ونلتقى من بعد ذلك فنتضاحك على هذا الوحى والإيحاء كيف جرى بيننا .

وكان يحب فى شبابه التوت الإفرنكى ، المعروف بالفرولة أو الشليك ، وكنت أحبّه . و إذا به يوما يشترى فى الجزيرة ، فيما يلى كوبرى قصر النيل ، بمبلغ كبير ، مقداراً من الشليك عظيما ؛ لا يكفى واحدا ، بل يكفى عشرين . قال : إذا اشتاقت نفسك إلى شىء ، وكرهتَ منها أن تشتاق كل هذا الاشتياق ، فلا تمنعها عنه تأديبا لها ، ولكن أغرقها به إغراقا . اجعلها تأكل حتى تعاف ، فقد يكون فى ذلك إبراء لها مما تشتهى ، من الحلال .

* * *

واعتزمت الرحيل عن مصر إلى انجلترا . واتصلت بيننا عبر البحر المكاتبة . كنت أكتب و يكتب . ومن كتبى إليه ، وفيها من نار الشوق ما فيها ، ومن بث ألم الغربة ما فيها ، ما كان يقرأه على طلبته فى مدرسة القضاء الشرعى . حدثنى بذلك ، عام أول ، تلميذه السيد الفاضل الشيخ محمد أبو زهرة ، أستاذ الشريعة بجامعة القاهرة ، كما حدثنى به آخرون .

وكتب لى مرة يقول إنه بعد أن افتقد صحبتى ، منّ الله عليه بشبيه لى ، يأنس إليه كما كان يأنس إلىّ ، شاب عاد من فرنسا ، أو لعله كان ذاهبا إليها ، اسمه عبد الرزّاق السنهورى . واشتقت إلى رؤية هذا الشبيه البديل ، إلى أن التقيت به ، بعد غيبة سنوات عشر ، على مائدة مجلس إدارة الجامعة المصرية . التقينا أستاذين ، السنهورى فى الحقوق ، وزكى فى العلوم .

ودخل الشيخ أحمد أمين الجامعة ، ورأى أن يغير العمامة بالطربوش ، مجاراة

للزمان ، وانسجاما مع بيئة الجامعة . وكتب يستنصحنى ، عبر البحار . ولست أذكر اليوم بأى شىء نصحته . ولكن يخيل إلىّ الآن أنى قلت له إنه حمل العمامة بضعاً وثلاثين عاماً ، وأنها خدمته بضعاً وثلاثين عاماً ، وإن الطلاق بعد هذه العشرة الطويلة ، لأن الرأس الذى يحملها قد أثرى ، شىء فى دستور الحب لا يستحب . ولعلى قلت له ، إنه إذا احتاج إلى الطربوش ، فما الطربوش بحاجة إليه . وإنما صاحب الحاجة إليه العمامة . إن سوق الطرابيش كانت رائجة ، والعمامة كانت فى حاجة إلى رأس كرأسه يدعمها ، كما دعمها من قبل له فى مصر وغير مصر أشباه . ثم تركت له أن يختار . وعدت فرأيته ، ورأيت الإخوان ، قد تطربشوا . فحزنت للعمامة أن يطّرحها أهلها هكذا اطراحاً . وكان ممن اطرحها صديقى أحمد حسن الزيات . وبينى وبينه من صلات المحبة وشائج تمتد جذورها فى الماضى البعيدة .

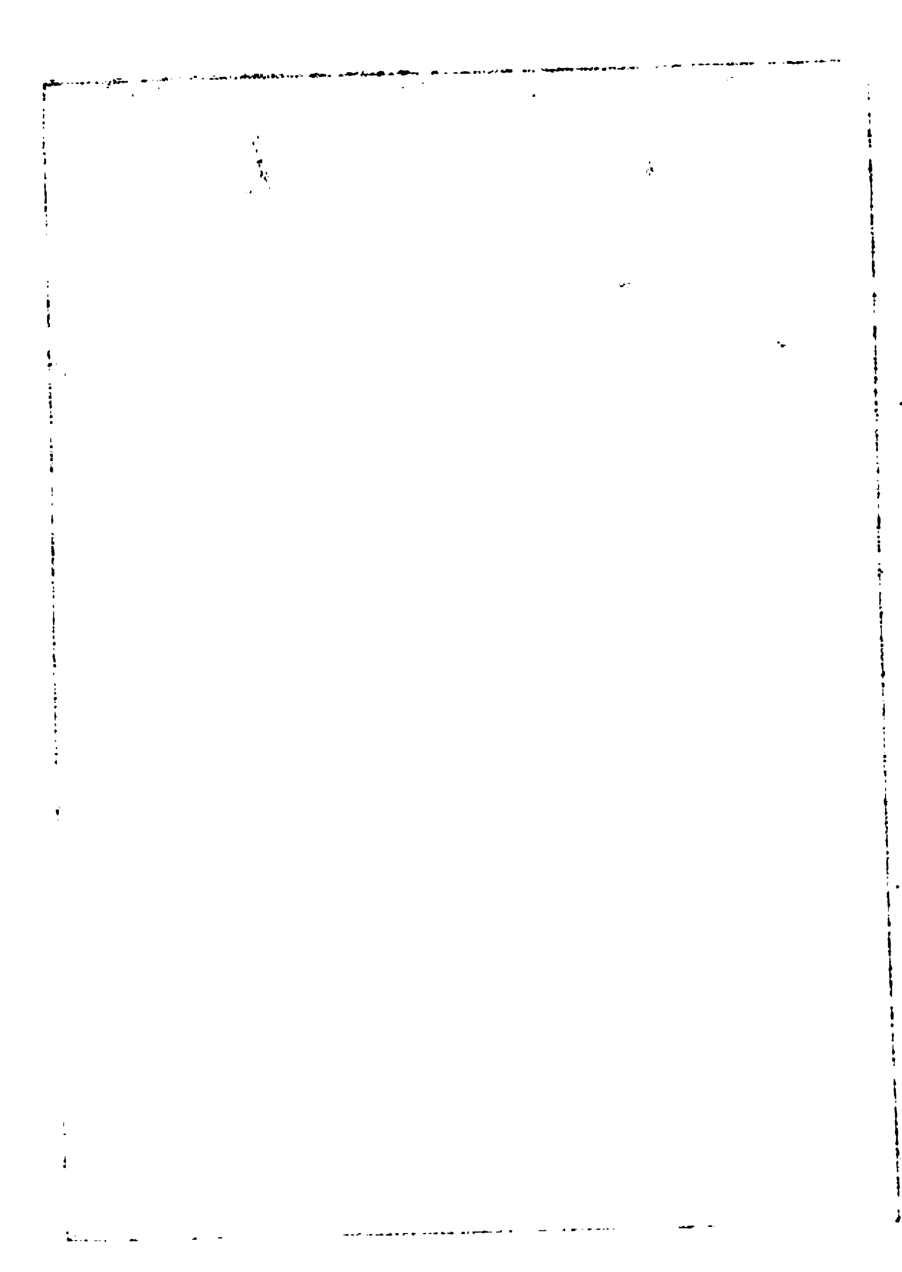
وامتدت الصداقة بينى وبين أحمد أمين نحواً من أربعين عاماً ، لا أذكر أنه وقع فيها بيننا جفوة ، إلا جفوة واحدة دامت يومين . وكانت جفوة فكر تتعلق بزميل ، أخذ يهدم من غير حساب . وأكره ما أكره الهدم بغير بناء . لا سيما الهدم فى أصول عليها الحياة قائمة . وناصر أحمد أمين الزميل باسم حرية الفكر ، ونشر له . وقرأ الناس ما نشر . وخفت أن أقرأه . وإلى اليوم لا أدرى ما كتب . فهكذا بلغ الحب بينى وبين أحمد أمين .

* * *

وفى اشتداد علته الأخيرة زرته . وكانت الجامعة أيضاً فى علة . وكان الوقت صباحاً . وصعدت إلى حجرته ، وكان وحده ، فراعنى منظره . كان منظر من يئس من الحياة فترك تقليم الحياة وتهذيبها . قال : كيف تزورنى فى هذه الساعة وروما تحترق . قلت : إن البلد الذى يحرقه أهله ، حتى لا يبقى فيها صغير ولا كبير إلا يستوقد لنارها ، بلد حلّ به غضب الله . وتذاكرنا الخيبة ، وتذاكرنا أمور



أحمد أمين فى شبابه



الأجيال . وقمت عنه إلى روما ، أشق لنفسى طريقاً فى لهبها .

* * *

وجاء آخر لقاء .

كان هذا فى أمسية ، بدار لجنة التأليف . وانصرف الناس و بقيت معه وحده. و إذا بنفسه تغيم فجأة كما تغيم السماء . وكنت أعرف ذلك من وجهه وقبل أن يتكلم . وأخذ يتكلم ، ويذكر الحياة وقلّة جدواها له بعد الذى كان . كان يشكو أن قصر النظر بلغ به أنه يسلم على الرجل فلا يدرى من هو . وعزّت عليه نفسه ، وغالبه البكاء فأخذ ينشج به . وأمسكت بيده أشد عليها . قلت : تماسك يا رجل . وكانت نصيحة قائلها كان أحق بها . وتتأخر سيارته فأحمله فى سيارتى . وأسرع لأقوده فى الظلام عند باب بيته وهو يهبط من السيارة . فإذا به ينادى الخادم حتى يرفع عنى كلفة إسناده ناحية الباب .

و بعد ٣٦ ساعة يدق التليفون فى مكتبى .

إن أحمد أمين قد مات توّا .

وأسرع إلى بيته ، فلا أجد به أحداً . لقد تفرق أولاده فى تجهيز الجهاز فلم يتخلف منهم فى البيت أحد . وأصفق وليس من يرد . والبيت هادئ ساكن . قفر لولا الحديقة . وأحضرت لنفسى كرسياً كان فى الحديقة وجلست . وأنظر إلى تلك الغرفة العليا ، وأنا أعلم أن أحمد أمين مسجًّى فيها ، ولكن لا سبيل إليه . إن السبيل كان أيسر إليه وهو حىّ .

* * *

شىء لا بد أن أقوله قبل أن أكفّ . ظن أحمد أمين أن الحياة عافته ، وأنها هجرته . والحق أنه هو الذى عافها ، وهو الذى احتقرها فى أيامه الأخيرة واحتقر ناسها . حضرنا حفلا فى سفارة العراق ، عصر يوم . وازدحمت السفارة بضيوفها .

وهناك التقيت بأحمد أمين . ظهر فى هذا الحفل بما لم يجر الناس على أن يظهروا عليه فى الحفلات : الذقن لم تحلق من أيام . والقميص مفتوح صدره ، وليس بياقته رباط . والهندام كله يكاد يهزأ بالحاضرين .

ودلف إلىّ فى الحفل صديقى إميل زيدان . قال لى : ماذا جرى لأحمد أمين . قلت : ذهب عنه احترام الدنيا . فقال إميل قولة من أحلى ما يقال فى هذا الموقف ، ومن أصدق ما يقال . قال : بل إن أحمد أمين ارتفع عن المجتمع ، فلم يأبه فيه بما يصنع .

رحم الله أحمد أمين ، بمقدار ما عاش ، و بمقدار ما جهد فى عيشه لنفسه ، ولولده ، وعلى الأكثر للناس . ورحمه رحمة واسعة .

أحمد أمين ... الفيلسوف

بقلم الدكتور

أحمد فؤاد الأهوانى

ترك أحمد أمين مؤلفات كثيرة ، وملأ الدنيا بمقالاته و إذاعاته وأحاديثه ، فكان مفكراً عميق الأثر فى هذه الفترة من تاريخ مصر والشرق .

و إذا شئنا أن نلتمس فلسفة أحمد أمين فعلينا أن نرجع إلى جميع مؤلفاته . ولكنى سأقصر البحث على أعلى كتبه شأنا ، وأستمد منه فلسفته .

لم يظفر كتابٌ من الذيوع والانتشار والتأثير بمثل ما ظفرت به مجموعة الكتب التى أصدرها أحمد أمين حين أصدر « فجر الإسلام » عام ١٩٢٩ ، وتبعها بضحى الإسلام فى ثلاثة أجزاء ، ثم الظهر فى أربعة أجزاء . فقد طبعت أجزاؤه الأولى ست مرات ، كل طبعة منها بضعة آلاف . وأصبح الفجر والضحى والظهر مرجع كل طالب ، ومرشد كل باحث ، والمنارة التى يهتدى بها الناظر فى التاريخ الإسلامى وحضارته .

فقد درج العرب على تأريخ حوادثهم فى حوليات كما نرى فى الطبرى وابن الأثير وغيرهما ، فيذكرون الأحداث من شتى نواحيها ، يختلط فيها التاريخ المحض السياسى بالأدب والعلم والدين ، ولم يعرف أحد من المتقدمين طريقة كتابة التاريخ الحديثة ، اللهم إلا ابن خلدون الذى صور فى مقدمته كيف ينبغى أن يكتب التاريخ ، حتى إذا شرع فى تدوين تاريخه سار على نهج القدماء .

أما تاريخ الحضارة بمعنى الكلمة فلم يعرفوا عنه شيئاً . فإذا أراد باحث اليوم أن ينهض لتصوير الحضارة الإسلامية فى مختلف عصورها ، مع بيان العناصر

المكونة لها ، والظروف التى أدت إلى ظهورها ، كالعوامل الجغرافية والسياسية والاجتماعية والأدبية والاقتصادية ، فلن يجد شيئاً من ذلك واضحاً فى الكتب القديمة . ذلك أن القدماء كانوا يتصورون أن الأدب هو الأخذ من كل شىء بطرف ، فترى الجاحظ يكتب فى البيان والتبيين تفسير آية إلى جانب حكاية للشعراء ، و ينتقل منها إلى رأى لصاحب المنطق ، وهكذا . وكذلك الحال فى الأمالى أو نهاية الأرب ، وغير ذلك من كتب الأدب ، أو التاريخ ، فكلها استطراد لا نظام فيها .

لذلك كانت مهمة مؤرخ الحضارة الإسلامية مهمةً شاقة عسيرة ، تحتاج إلى إحاطة شاملة بكثير من العلوم ، من تفسير وحديثٍ وتاريخ وفقه وأدب واجتماع واقتصاد وفلسفة وعلم كلام وتصوف ، وعلى الجملة كافة العلوم المكونة للحضارة .

و يحتاج المؤرخ بعد هذه الإحاطة الشاملة إلى تنظيم جديد لهذه المادة الواسعة التى جمعها . وهذا التنظيم عقلىٌّ ، وتتجلى فيه أصالة المفكر ورجاحة عقله ، لأن الأفكار ليست كالأمور المادية المحسوسة التى تشاهد بالحواس ، بل هى أعلى من الظواهر الحسية ولا تدرك إلا بالعقل . وقد لمس أحمد أمين هذه الصعو بة فى كتابة تاريخ الفكر الإسلامى ، فقال فى مقدمة الجزء الأول من « ضحى الإسلام » : « لعل أصعب ما يواجهه الباحث فى تاريخ أمة هو تاريخ عقلها فى نشوئه وارتقائه ، وتاريخ دينها وما دخله من آراء ومذاهب . ذلك أن مدار البحث فى المسائل المادية وما يشبهها واضح محدود ، وما يطرأ عليها من تغير ظاهرٌ جلىٌّ . أما الفكرة فإذا حاولت أن تعرف كيف نبتت ، وكيف نمت ، وما العوامل فى إيجادها ، وما العناصر التى غذتها ، وما الطوارئ التى طرأت عليها فعدلتها أو صقلتها ، أعياك ذلك ، و بلغ منك فى استخراجه الجهد ... » .

وفى هذه العبارة القصيرة التى نقلناها يتضح الدستور العقلى الذى رسمه

أحمد أمين لنفسه ليسير على نهجه فى تفصيل الحياة العقلية عند المسلمين ، منذ نشأتها حتى العصور الحديثة .

فهو يحلل بعقله العقلية الإسلامية فى تطورها .

والنظر بالعقل فى العقل هو الفلسفة على التحقيق . فقد قيل فى تعريف الفلسفة أمور كثيرة ، أشهرها ما ذكره المعلم الأول من أنها العلم بالعلل والمبادىء الأولى . وقد انحصرت الفلسفة اليوم بعد انفصال العلوم المختلفة عنها فى تحليل العقل البشرى . ولم يفعل أحمد أمين أكثر من ذلك ، حاول أن يلتمس العلل البعيدة التى غذّت العقلية الإسلامية ونمتها وصقلتها وشكلتها فى شتى الصور على مر العصور . واقتضى منه هذا التحليل أن يرجع إلى العوامل الدينية المستمدة من الإسلام ، و إلى العناصر الدخيلة على المسلمين من الحضارة الفارسية والهندية ، ومن الفلسفة اليونانية ، وكيف تفاعلت هذه العوامل كلها فى بوتقة الحضارة الإسلامية . وفعل أكثر من ذلك أنه نظر إلى العقل الإسلامى فشرّحه ، فى حرية شديدة ، وانتقل من التحليل إلى الأفكار التركيبية التى انتهت إليها العقلية حتى تحققت فى الحياة ، واستوت فى مظاهر السلوك ، و برزت فى الأقوال المسطرة ، والكتب المدونة ، والعلوم المنتشرة .

ومن هذا الوجه كانت لأحمد أمين فلسفةٌ أبْرَزَها فى أعلى كتبه شأناً ، وهو فجر الإسلام وضحاه وظهره .

وتقوم هذه الفلسفة على أن الشرق يمتاز بظاهرة قوية أثرت تأثيراً عظيما فى حياته ، وصبغت تفكيره بصبغة غلبت على جميع أنظمته ، ذلك هو الإسلام الذى انتشر من أقصى الشرق فى الهند إلى أقصى الغرب فى الأندلس . فإذا شئنا أن نعرف حالنا اليوم ، وأن نتبين ما لنا من فلسفة ، أو ما ينبغى لنا أن تكون ، فعلينا أن نرجع إلى تلك الأصول الإسلامية البعيدة منذ ظهور الإسلام ، بل قبل ظهور

الإسلام ، لنتبين الأسس التى قامت عليها ، والعوامل التى أدت إلى قيام الحضارات المختلفة . فالحاضر وليد الماضى ، والأمم تتبع فى تطورها سنة النشوء والارتقاء .

وقد التزم أحمد أمين فى بحثه أبواباً ثلاثة كان يفصلها عندما تناول الحضارة الإسلامية وما وراءها من عقلية موجهة لها بالكتابة ، وهذه الأبواب الثلاثة هى الناحية الاجتماعية ، ثم العلمية ، ثم الدينية .

وقد امتزجت هذه الأبواب الثلاثة فى الكتاب الأول فجر الإسلام ، لأن الحضارة لم تكن قد اتسعت ذلك الاتساع الذى بلغته فيما بعد . ولكنه حين كتب ضحى الإسلام قسمه ثلاثة أقسام أو ثلاثة أجزاء ، وهى المجموعة التى تفصل المائة الأولى من العصر العباسى ، من عام ١٣٢ إلى ٢٣٢ أى إلى خلافة الواثق لأنه كما يقول : « عصر يمتاز بلون علمى خاص ، كما أن له لوناً فى السياسة والأدب خاصاً ، امتاز بغلبة العنصر الفارسى ، و بحرية الفكر إلى حد ما ، و بدولة المعتزلة وسلطانهم . و بتلوين الأدب من شعر ونثر لوناً احتذى على كر الدهور واختلاف العصور » .

وكذلك ظُهر الإسلام ، فالجزء الأول منه يبحث فى الحالة الاجتماعية ومراكز الحياة العقلية من عهد المتوكل إلى آخر القرن الرابع الهجرى ، والجزء الثانى يبحث فى تاريخ العلوم والآداب والفنون فى القرن الرابع ، والجزء الثالث الذى طبع بعد وفاته يبحث فى الحركات الدينية المختلفة . أما الجزء الخاص بالأندلس من ظهر الإسلام ، فهو جزء على حدة لامتياز الأندلس بحضارة من لون خاص ، وهو يبحث فى الحياة العقلية منذ فتح العرب للأندلس حتى خروجهم منه .

* * *

وقد تقول أين تعلم أحمد أمين الفلسفة ، وعلى أى الأشخاص أخذها وعرفها ؟ الحق أنه علم نفسه بنفسه ، إلى جانب نزوع فطرته إلى محبة الحق و إيثار الحكمة .

وليست الفلسفة شيئاً آخر إلا معرفة الحقيقة لذاتها ، وطلب الحكمة ، مهما تعترض المرء من معوِّقات تنشأ معظمها عن السير مع الهوى ، والتمسك بالتقاليد . فمنذ شروع أحمد أمين فى التأليف نرى أنه يترجم كتاب « مبادئ الفلسفة » وهو كتاب صغير الحجم جيد فى بابه يلخص معانى الفلسفة حديثاً مع ذكر فروعها المختلفة على وجه الإيجاز . وكان ذلك الكتاب من أوائل ما طبعته « لجنة التأليف والترجمة والنشر » . ثم نراه بعد ذلك يؤلف مع الأستاذ زكى نجيب محمود كتاب « قصة الفلسفة اليونانية » ثم « قصة الفلسفة الحديثة » ، وهو كتاب يستعرض تاريخ الفلسفة منذ أقدم عصورها حتى العصر الحاضر ، وقد ألف كذلك كتاباً منذ نحو ربع قرن مضى فى الأخلاق للمدارس الثانوية بسط فيه المذاهب الأخلاقية المختلفة . فهذا الاتجاه فى التأليف الفلسفى وفى ترجمة الكتب الفلسفية ينبئ عن نزعة فلسفية أصيلة أشربت بها نفسه منذ عهد بعيد . فليس من الغريب حين يؤلف فى العقلية الإسلامية أن يصطنع مناهج الفلاسفة و يتأثر خطاهم فى التفكير ، ويطبق المذاهب الحديثة على بحثه فى الحضارة الإسلامية ، فطلع بذلك بآراء جديدة هى ثمرة هذه النزعة الفلسفية الأصيلة فى نفسه ، ونتيجة اطلاعه على الفلسفات الحديثة والقديمة على حد سواء .

وتقوم هذه الفلسفة التى انتهى إليها على دعائم ثلاث كما ذكرنا هى الدين والعلم والاجتماع . وهى عناصر متكاملة لا غنى لبعضها عن بعضها الآخر . فإذا شئنا أن نعرف حقيقة العقلية الإسلامية ، فلا بد أن نعرف تاج هذه العقلية وهو الدين ، وأدواتها التى تبرز بها وتتحقق وهى العلوم المختلفة ، وحياتها بل وروحها وهى المراكز الاجتماعية التى تركزت فيها ونمت وترعرعت . أمّا الفلسفة كأفكار مجردة عن الحياة الاجتماعية ، بعيدة عن الحركة العلمية ، فعبارات جوفاء ماتت على أيدى المدرسيين ، ولا تتفق مع نشأة الفلسفة حين كانت نابضة بالحياة زمان سقراط وأيام أفلاطون ، بل تصبح جسداً بلا روح .

فالفكر فى نظر أحمد أمين أشبه بالنهر الجارى المتدفق ، الحياة الاجتماعية روافده ، والحركة العلمية مجراه ، والدين مصبه وغايته . ونجد تطبيق هذه الفلسفة واضحة أعظم الوضوع فى فجر الإسلام ، ومفصلة فى الضحى ، وأشد تفصيلا فى ظهر الإسلام .

* * *

وقد اجتمعت له خصال إذا اجتمعت فى شخص كان حكيما على الحقيقة ، هى : حرية الفكر ، والبعد عن الدجماطيقية ، والترحيب بالنقد ، والجلاء والوضوح ، والعناية بالكل دون الأجزاء ، والبحث عن العلل .

كان أحمد أمين حر الفكر إلى أبعد حدود الحرية ، لا يقول إلا ما يعتقد ، ولا يحفل إلا بالحق وحده ، لا يهمه مصانعة ذوى السلطان ، أو تملق الجماهير ، أو مشايعة الأهواء . وتبدو هذه الحرية فى الجهر باعتقاداته الدينية على الرغم من مصادمتها لمشاعر الجمهور ومخالفتها للمألوف من التقاليد الطويلة الأمد . جاهر بالانتصار لمذهب المعتزلة ، أهل العقل فى الإسلام ، ونادى بالرجوع إليه ، مع أن المسلمين عارضوا ذلك المذهب منذ القرن الرابع ، وحكموا على أصحابه بالكفر ، وحرقوا كتبهم ، ومنعوا تدريسها فى مدارسهم . وجاهر برأيه فى الشيعة ومعتقداتهم حتى كاد يصيبه من جراء ذلك محنة عظيمة حين كان ببغداد بعد أن أصدر فجر الإسلام . فنحن نرى أنه لم يبال بأهل السّنة كما لم يبال بالشيعة فى سبيل إعلان رأيه وحرية فكره . وهذا هو شأن الفلاسفة . وقد صحبته هذه الحرية فى جميع آرائه الأخرى سياسية أو اجتماعية أو أدبية ، كما يتضح من النظر إلى مجموعة مقالاته التى جمعها فى كتابه الآخر الحافل « فيض الخاطر » . ومن شاء أن يستقصى مذهبه الفلسفى فى الحياة ، فعليه أن يتتبع تلك المقالات .

أما العنصر الثانى المكوِّن لفلسفته فهو البعد عن الدجماطيقية . والدجماطيقى

هو الذى يقطع برأيه ، ويجزم به ، ويعتقد فيه اعتقادا يصرفه عن البصر بآراء غيره . ولا تجتمع فلسفة ودجماطيقية ، لأن الفلسفة هى محبة الحق لا الانتصار للرأى حتى لو كان باطلا . ولم يكن أحمد أمين يقطع بالرأى إلا بعد البحث والتنقيب ، وجمع الأدلة والبراهين ، بل كان على استعداد للنزول عن رأيه إذا اتضح له بطلانه ، أو نبهه إليه ناقد .

وهذا يُسْلمنا إلى الخصلة الثالثة وهى النقد . والمقصود بالفلسفة النقدية فى الاصطلاح ، خصوصا بعد كانط ، النظر فى العقل البشرى لمعرفة حدوده ومدى ما يمكن أن يصل إليه . وتقال فلسفة نقدية أيضاً لمن يعدل عن النزعة الدجماطيقية حتى لينتقد نفسه ، كما فعل أفلاطون فى نقده المثل فى محاورة بارميندس . وكان أحمد أمين نقديا على كلا المعنيين . نظر فى العقل البشرى ، و بيَّن حدوده ، فقال ينتقد المعتزلة والأشاعرة فى آخر جزء من ظهر الإسلام : « والناظر إلى هذا الخلاف [يريد الخلاف على الذات والصفات] يرى أن كلا من المعتزلة والأشعرية جاوزوا حدَّهم ودخلوا فى سفسطات لا طائل تحتها ، وليس العقل البشرى بمستطيع شيئاً من ذلك . إننا لا نستطيع أن نقول بالنسبة لأنفسنا إنْ كان علمنا غير ذاتنا ، وقدرتنا غير ذاتنا ، أو هى هى ، فكيف نستطيع أن نقول ذلك فى الله ؟ إن عقولنا ضعفية لا تصلح إلا لخدمتنا فى الوصول إلى أغراضنا فى الحياة الواقعية . ومحاولة الوقوف على هذه الموضوعات ليست فى متناول العقل البشرى . إن العقل البشرى لا يستطيع أن يدرك حقيقة أى شىء إدراكا تاماً ، وكل ما لا يستطيع أن يدركه هو بعض صفاته ... الخ » ظهر الإسلام — جـ ٤ — ص ٧٦ .

أما النقد المعروف فقبول أحمد أمين له عقب نشر الطبعة الأولى من فجر الإسلام كان يعد حدثاً خطيراً فى الحياة الأدبية والفكرية فى مصر والشرق ، فلم يسبق لكاتب أن فتح صدر مجلته لنشر النقد مهما يكن لاذعاً كما فعل أحمد أمين فى « الثقافة » . وحين أصدر الطبعة الثانية قال فى المقدمة : « . . . . وكان

ما لقيته من الباحثين من أهل العربية والمستشرقين أكبر مشجع لى على عملى ، فقد نقدوه وقرظوه ، وانتفعت بما أبدوه من آراء قيمة فى نقده وتحليله . . . » .

وقال فى مقدمة الجزء الثالث من ظهر الإسلام : « فأقدم الكتاب على هذا النحو للقراء ، راجياً منهم — لا كما يقول السابقون — أن يغضوا الطرف عما فيه من عيوب ، بل أن يقيدوها و يشرحوها و يبيِّنوها لى ، حتى أتدارك ما لا يخلو منه مؤلف من خطأ . فالحياة العلمية فى كل نوع إنما تحيا بالنقد ، وتتقدم بتمحيص الآراء ، و إظهار العيوب ، وحسن التوجيه » .

ونحن نعتقد أن هذه النزعة الجديدة أثرت فى الجيل المعاصر أعظم تأثير ، وسارت بالحياة الفكرية نحو إصابة الحق ، بعد أن كان الكتاب والمفكرون يفزعون من النقد لضعفهم ، و يسير بعضهم فى موكب بعضهم الآخر مادحين مقرظين . . . على حساب الحق .

وخصلة رابعة هى الجلاء والوضوح . و إنما جاء هذا الوضوح من أمرين : الأول وضوح الرأى فى ذهنه ، والثانى الابتعاد عن التزويق فى اللغة . كان يستطيع أن يتقعر ، وأن يسجع ، وأن يجرى على أساليب الجاحظ وغيره من المتقدمين ، ولكنه آثر جلال المعنى على جمال اللفظ ، ورنين الفكرة على جرس العبارة . ودرج على التعبير البسيط الذى يضرب فى المعنى إلى الصميم دون برقشة وزركشة حتى يضرب للناس مثلا فى العناية بالأفكار ، والابتعاد عن الصنعة التقليدية التى قتلت الفكر وأثقلته بهذه الزينة اللفظية .

وخصلة خامسة هى النظرة الكلية الشاملة بغير أن يغرق فى التفصيلات . وهذه هى الفلسفة عند بعض المشتغلين بها . يقول ول ديورانت فى كتابه « مباهج الفلسفة » : « سوف نُعَرِّف الفلسفة على أنها النظرة الكلية ، والعقل الذى يُبَسِّط الحياة ، و يحيل الاضطراب إلى وحدة » . الحق كان أحمد أمين فى كتابته للحياة العقلية فى الإسلام فيلسوفا ، لأنه ارتفع إلى هذه النظرة الكلية الشاملة ، و بَسَّط

تلك الحياة بنظره النافذ ، وأحال ما فيها من اضطراب إلى وحدة ، فلم يعد القارئ العربى يحس بإزاء تاريخه أنه فى متاهة لا يعرف كيف يدخل إليها ، وكيف السبيل إلى الخروج منها .

وخصلة أخيرة هى الغوص وراء العلل الصحيحة المؤثرة فى مظاهر الدين والاجتماع والأدب واللغة . وهو لا يعرض هـذه العلل عرضاً أدبياً براقاً ، بل يفصلها تفصيلا ، ويعد الأسباب ويضع لـكل علة رقماً ، مما يدل على وضوح الأفـكار وتسلسلها . فعل ذلك عند الـكلام على أسباب تدهور اللغة ، وتأخر العلوم ، وركود الفلسفة ، وغير ذلك من المباحث التى تناولها .

* * *

وقد أدت هذه الخصال الفلسفية إلى إعلان نتائج عظيمة الخطر فى حياتنا الحاضرة ، تختص بالعقل ، والدين ، واللغة ، والعلم ، والاجتماع ، والأدب .

وجملة ما يريده من هـذه الأمور كلها هو اطراح التقاليد الثقيلة المعطلة للتقدم والرقى ، والنظر بحرية فـكر فى كل ناحية من نواحى الحياة . فلابد فى العقل من تحليله ، ومعرفة حدوده ، و بيان الأصول التى يجرى عليها التفـكير المستقيم ، والتزام النزعة الواقعية ، ثم تطبيق هـذا العقل على مظاهر الحياة المختلفة ، حتى يجرى السلوك على أساس من العقل .

وقد أعلن فيما يختص بالدين عدة آراء تعد ثورة حقيقية فى هـذا الميدان ، أولها الرجوع إلى مبادئ المعتزلة أى تفسير الدين بالعقل . والثانى فتح باب الاجتهاد حتى لا نظل عبيداً لأبى حنيفة والشافعى ومالك وابن حنبل ، وقد كانوا ملائمين لزمانهم ، أما اليوم فقد تغيرت الأحوال . والثالث المهادنة بين الشيعة والسنة حتى تتحد كلمة المسـلمين ، وخصوصاً أن موضوعات الخلاف بينهما أصبحت فى ذمة التاريخ البعيد .

وعلى هذا النحو نادى بإصلاحات اجتماعية ولغوية أترك الحـديث عنها لمن يبحث فى آرائه من « فيض الخاطر » مقتصرين على الموضوعات التى تعد من جملة الفلسفة ، إذا اعتبرنا الدين وثيق الصلة بها .

ولا نزاع فى أن هذه الآراء قد أثمرت فى الجيل الحديث نتيجة اطلاع الشباب على كتبه ، والإقبال عليها ، فلا غرابة أن يكون أحمد أمين فيلسوفاً معاصراً موجهاً للشرق الحديث .

أحمد أمين ... الوالد

بقلم الأستاذ

جلال أحمد أمين

إن المكان الضخم الذى شغله أحمد أمين فى حياته ، هو نفسه الفراغ الذى خلفه بموته . إن قلوبنا قد أوحشها فقده ، بقدر ما كان يشغلها حبه ، والكتابة عنه ، وإن كانت تترك ألما فى نفوسنا ، فإنه من قبيل الألم المحبوب .

* * *

إن أحمد أمين الوالد ، هو نفسه أحمد أمين الأديب والمجاهد والفيلسوف ، ولهذا فإننا — نحن أبناءه — نحتفظ له فى قلوبنا — قبل كل شىء — بما قدمه لوطننا ، الذى نحن جزء ضئيل منه .

ولكن أحمد أمين قد خصنا نحن بما لا يقدر على شكره من أجله غيرنا .

إن أكبر فضل له علينا ، وسنظل دائما نذكره له ، أنه احتفظ لنا بحريتنا ، وعلمنا كيف نحافظ عليها . لم نحس قط بأنه يقيدنا ، وإنما كان يتركنا لنقيد أنفسنا بضمائرنا .

وقد أشعرت سياسته هذه كلاً منا بواجبه ؛ وإذ كنا ننظر إليه إذا قصّرنا لنبحث عن أثر تقصيرنا فيه ، كان سلوكه ينم عن رد واحد : إن نتيجة تقصيرك عائدة عليك وحدك . وبهذا تعودنا ألا نبحث عن أثر أخطائنا فى عينه هو ، بل عن أثرها فى أعيننا نحن .

كان يحاول دائما أن يتركنا نصلح أخطاءنا بأنفسنا ، ولهذا لم يكن يتدخل إلا حين يعتقد أن تدخله لم يعد بد منه .

كان يكره الترف لنفسه ولنـا ، بل إنه كان بعد أن كبرت سنه ، لا يفـكر فى أثر الترف عليه هو ، بقدر ما كان يفـكر فى أثره علينا نحن . إن الأكل والملبس لم يكونا يظفران منه بأية مبالاة ، وكان يحب أن يرى مثل ذلك فينا أيضاً .

قال لنـا إنه أجهد نفسه قبل ولادة ابنه الأكبر فى محاولة تقرير أفضل الطرق فى تربيته ، وأخذ يقرأ كتب التربية وعلم النفس . فلما تمت ولادته كان يبذل عناية فائقة في اختيار أدوات لعبه ، إذ كان يعتقد أنه إذا نجح فى أن ينشىء ابنه الأكبر تنشئة سليمة فقد ضمن نجاح الباقين .

ومع عنايته الشديدة بنا ، كان يتعمد ألا يحقق لنا كل ما نطلبه . كان يحاول أن يعدّنا قدر الإمكان لمواجهة الحياة الصعبة من بعده ، وكان يؤلمه أن يعود مثلا من سفره فيجد أحوالنا قد اضطربت ، وأننا جلسنا ننتظر عودته لإصلاحها .

وكان يملأنا غبطة أن نراه بالغ الثقة فينا . لقـد كان يفاجىء الناس كلهم بثقته فيهم ، فإذا بمن لم يكن يستحقها قد خار أمامها ، وفعل ما يجدر به أن يفعل .

* * *

ما الذى كان يثير اهتمام أبى ؟ ما الذى كان يجلب له السعادة الحقيقية ؟

إنه فى يوم واحد نال الدكتوراه الفخرية ، ونال جائزة الدولة للأدب ، وكان محور الاهتمام والتكريم فى حفل ضخم بالجامعة أشيد فيـه بآثاره الأدبية وبفضله على الجامعة . ولـكن كل هذا لم يبد له أثر عليه ، بل إنه قال لنـا بعد عودته إنه فى مثل هذه الظروف يشعر بشىء أشبه بالاكتئاب .

ولـكننا ألفناه يصبح سعيداً كالشباب عند انتهائه من كتابة مقال أو فصل يظفر بإعجابه . كنا نحس حينئذ بدمه يغلى وقلبه ينبض بالفرح ، وكان سروره بما

كتب أشبه بسرور الأب الفخور بعمل جميل أتاه ابنه ، ولا ينقطع عن الحديث عما كتب حتى يهدأ خفقان قلبه بإفراغه ما فى أعماقه .

ومع هـذا يصعب القول بأنه كان سعيداً . لقد كانت حياته هادئة ، وكان استقباله للأحداث حليما رزينا ، ولـكن قليلا من الأشياء كان يستطيع إبهاجه .

* * *

كان يعشق البحر . ما أن يصل معنا إلى المصيف حتى نراه يستنشق نفساً طويلا بطيئا ثم يخرجه ببطء أيضاً وهو يردد مع خروجه : الله ... الله ... الله ، الأولى طويلة ، ثم تقصر بالتدريج ، ثم ينظر إلينا ، ويطلب إلينا أن نفعل مثل ما فعل .

فإذا شرع فى اختيار حجرته ، كانت هى المطلة على البحر دائما . ولعل قليلا من يعرف أنه كان بارعا فى السباحة أيضا ، لم ينقطع عنها إلا بعد إصابته بمرضه الأخير . وكان يطيل استلقاءه على ظهره فوق الماء ، مغمض العينين ، ويطول انتظارنا نحن لإفاقته . إنه هو الذى دربنا جميعا على العوم ، بل هو الذى درب حفيداته أيضاً . وقد ظلت إحداهن ترهبه زمناً طويلا ، لأنه كان أول من أذاقها ماء البحر .

ومما كان يحمله معه عند عودته إلى المنزل ، مع الـكتب والأوراق ، باقة صغيرة من الزهور . وحديقته كانت من الأشـياء القليلة التى تبعث فى نفسه السرور ، وكان يطيل الحديث مع بستانيه فيما قطفه من زهور ، وما نما وما لم ينم من أشجار .

* * *

وكان يحب الموسيقى الشرقية الحزينة ، ولم تكن تطرب به الموسيقى الغربية .

وعلى الرغم من كثرة اشتغاله بالقراءة والتأليف فلم يكن يغفل صحبتنا ، وكثيراً

ما كان ينفق أوقاتاً يلهو معنا لهواً راقيا ، كان يلعب الشطرنج مع جميع أولاده ، وهو الذى علمنا هذه اللعبة . وكان ينتصر علينا فى معظم الأوقات .

* * *

أما السياسة فكانت قليلة الشأن عنده ، لم تكن مهنتها مما يقدره ، ولا مجدها مما يصبو إليه ، ولا حديثها مما يحب أن يطيل فى الاستماع له . ومع ذلك كانت حوادثها — إذا تعلقت ببلده — بالغة الأثر عليه . بل إن والدتى لتقص علينا أن خبرا سياسيا سيئا كان أحياناً يكدره لبضعة أيام ، ولهذا السبب كنا فى مرضه الأخير نتعمد أن لا يصل إليه ما كان يجرى من أحداث .

وكان يؤمن إيماناً عميقاً بالديمقراطية ، ورأيه أن الاستبداد « يجعل من النفاق سياسة ، والتحايل كياسة ، والدناءة لطفاً ، والنذالة دماثه وظرفاً » .

وكان يكره النفاق ، فإذا عين صديق له فى منصب كبير ، لم يذهب لتهنئته ، ولكنه إذا خرج منه يذهب ليسرى عنه . كان يقول إنه يكون فى حاجة إلى حين يترك المنصب لا حين يليه .

* * *

كان يكره المظهر فى كل شىء ، فكان الأسلوب فى الكتابة قليل الشأن عنده ، وكان يسره ما يقوله له تلاميذه من إنهم لا يستطيعون تلخيص دروسه لشدة تركيزها .

إنه بذل كل حياته للكتابة . لقد كان بإمكانه — لو أراد — أن يعيش أكثر مما عاش ، ولطالما ألححنا عليه ، فى أن يترك عمله وتآليفه و يستريح ، ولكنه كان يقول . إنه يموت كمداً لو قرر أن يستريح . بل إن أعوامه الأخيرة كانت

أحفل أعوامه بالإنتاج فلم يكن يفرغ من كتاب حتى يبدأ فى غيره . ومات وقد خلف وراءه ثلاثة كتب لم تنشر .

وقد أثر فيه كثيرا أن أصبح ضعف عينيه يحول دون أن يقرأ و يكتب كما كان يريد ، واضطره إلى الاستعانة بمن يقرأ و يكتب له . وكان يقول آسفاً إنه كان فى صحته يمسك مرجعاً من المراجع فينقلب صفحاته فلا يلبث أن يعثر على الصفحة فلا يلبث أن يعثر على الصفحة التى يريدها فى لحظة ، فإذا به بعد أن ضعف بصره يقضى زماناً طويلا يبحث عن الموضوع الذى يفنده ، ولم يكن باستطاعة أحد أن يعينه فى ذلك .

* * *

كانت قوته النفسانية عظيمة إلى أعظم الحدود ، فلما مرض فى السنوات الأخيرة أصيب بآلام نفسية لا حد لها . حرمه ضعف بصره من أن يقرأ و يكتب بنفسه ، وكان ذلك قاسياً عليه ، وحرمه ضعف جسمه من أن يمارس كثيرا من النشاط الذى اعتاده وكان يجد فيه لذة كبرى له . ثم بدأ فى السنتين الأخيرتين يشعر بآلام جمة فى صدره . ولكنه كان فى تحمل آلامه كالصخر . وفى الوقت الذى كان يبدو أشد الناس حاجة إلى شخص يسرى عنه كان يفضل أن يبتلع هو ألمه ولا يبديه .

فى شهوره الأخيرة كان يستيقظ عدة مرات أثناء الليل ، وكان فى بادئ الأمر يوقد النور ، فرأى أننا حين نحس باستيقاظه نذهب إليه ، ولا نتركه حتى ينام ، فأصبح إذا استيقظ يظل وحده فى الظلام لكيلا يوقظنا .

وفى ليلته الأخيرة عاودته آلامه وأيقظنا توجعه وهرعنا إليه ، فكان لا يلبث كل لحظة أن يلح علينا فى أن نذهب نحن لننام وأنه لم يلبث أن يستريح .

كان أبى من هؤلاء القلة الذين يطوون الآلام على أنفسهم ، ولا يشركون غيرهم فيها .

* * *

لقد أصبح كل شىء فى بيته ، كما فى خارج بيته ، يفتقده . حتى الشجرة الصغيرة فى حديقته التى كان معنياً به قد ذبلت بعده .

لقد ظفر الموت فى النهاية بمن كتب طويلا عن الموت والحياة .

ومع هذا فإن كنا جميعاً سواء أمام الموت ، فليس حظنا فى الحياة واحداً . وقد استطاع أبى أن يتفوق بحياته .

أحمد أمين ... القاضي

بقـــلم الأستاذ

حسن جلال

نشأ المرحوم الدكتور أحمد أمين نشأة تؤهله لأن يكون « عالما » لا لأن يكون « قاضيا » . فقد كان والده من رجال العلم والتعليم وقد وصفه عليه رحمة الله فى كتابه « حياتى » فقال إنه كان « يحاسب أولاده على تعلمهم محاسبة عسيرة ، فهو يمتحنهم دائما فى حفظ القرآن وحفظ المتون ، وفى فهم دروسهم ، فإذا أخطأوا حسبل وحوقل ، وقد يغضب ويضرب ... وكل صحبتنا له كانت صحبة درس جديد أو امتحان فى درس قديم . ولا أذكر أنه مزح معنا ، وقل أن ضحك فى وجوهنا . ولذلك كان اطمئناننا ومرحنا القليل ساعة يغيب عن البيت ، وخوفنا ورهبتنا وحبس أنفاسنا ساعة يحضر » .

* * *

وقد تقلب الدكتور أحمد أمين فى أيام دراسته الأولى بين مختلف المدارس والمعاهد حتى انتهى إلى مدرسة القضاء الشرعى فأتم دراسته بها ، وتخرج فيها ، ووقف الوقفة الحاسمة التى يقفها كل متخرج بعد إتمام دراسته ليختار طريقه فى الحياة . وكانت دراسته فى تلك المدرسة تؤهله للاشتغال بالتعليم فيها ، أو للعمل فى « القضاء » . فلم يتردد فى الاختيار ، واتجه من فوره إلى البقاء فى معهده الذى تخرج فيه ليعمل مدرسا به . وظل فيه أكثر من عشرة أعوام وهو يقرأ ويؤلف ويبنى أجنحته القوية التى حلق بها فيما بعد فى سماوات العلم والتأليف العلمى — وكان انتقاله إلى « القضاء » بعد هذه الفترة الطويلة التى قضاها فى العلم والتعليم

بمثابة محنة من المحن التى يصاب بها المؤمنون . وإنى أفضل فى هـذا المقام أن أستعير كلماته التى خطها بيده ليصف الهزة التى عرته على أثر هذا الانتقال . قال :
— صدر الأمر بنقلى إلى القضاء فعينت قاضيا فى محكمة قويسنا الشرعية . وكان هذا آخر العهد بتدريسى بالمدرسة . وانتهت بذلك مرحلة طويلة هى زهرة العمر تقريبا . . . خمسة عشر عاما من سنى الشباب بين طالب ومدرس نلت فيها أكثر ثقافتى ، وجربت فيها أكثر تجاربى فى الحياة ، وتعلمت ما استطعت من العلم ومن الناس ، ولقيت فيها أكبر الشخصيات التى أثرت فى نفسى ، وطُبعتُ فيها بطابع لا زمنى طول حياتى — دخلتها مغمض العينين ليس عندى إلا قليل من التجارب ، وخرجت منها شيئاً آخر . لذلك بكيت عليها كما أبكى على فقد أب أو أم أو أخ شقيق . ومما آلمنى (وهنا بيت القصيد) أنى تركت التدريس وهو ما أحبه إلى القضاء وهو ما لا أحبه . . . . » .

***

والقضاء فى ذاته مهنة سامية يتنافس فيها المتنافسون ، فهى صناعة من صناعات الله سبحانه وتعالى . وصاحبها موضع التبجيل والتكريم حيثما حل أو أقام . ولا يلمس القاضى فى عمله شيئاً من ذلك الضغط التقليدى الذى قد يرزح تحت نيره غيرُه من أصحاب المهن الأخرى ، فهو يستمتع فى عمله بكامل حريته واستقلاله ، ولا يحس وطأة رقيب عليه اللهم إلا رقابة ضميره ومخافة الله . فإذا قال رجل عاقل إنه لا يحب القضاء ، فمعنى ذلك على الأصح أنه يحب شيئاً آخر أكثر من حبه للقضاء . وهذا الشىء الآخر الذى كان يحبه الدكتور أحمد أمين هو حياة العلم والتعليم ... وهو اتصاله الدائم فى تلك البيئة العلمية بهاتيك الشخصيات الكبيرة التى يقول عنها إنها أثرت فى نفسه ، وطبعته بتلك الطوابع البارزة التى لازمته طول حياته . ومثل هذا الكلام يصبح أكثر فهماً ووضوحاً حين يعرف الإنسان

أن الدكتور أحمد أمين عليه رحمه الله كان يشير فى كلامه هذا إلى شخصية كشخصية عاطف بركات مثلا — ناظر مدرسة القضاء الشرعى — وأمثال عاطف بركات من أفذاذ الرجال الذين يحلو العيش فى كنفهم ، وتطيب الحياة إلى جوارهم ، وترتفع روح الجليس الذى يخالطهم إلى ذلك المستوى العالى الذى يعيشون هم فيه .

* * *

ومسألة أخرى فيما أعتقد كان لها أثرها أيضاً فى ازورار الدكتور أحمد أمين عن مهنة القضاء وعدم ارتياحه لها — وذلك ما عبر عنه هو فى « حياته » بقوله :

« ظللت فى القضاء أربع سنين ... سنة فى قويسنا ، وسنة فى طوخ ، وسنتين فى محكمة الأزبكية . ومع ذلك فلم استمرئ القضاء ولم أسعد به — كل ماأراه أسر قد خربت ، أما الأسرة السعيدة فلا أراها : زوجة تطلب نفقة من زوجها — وزوج يطلب الطاعة من زوجته . فيحكم بالنفقة على الزوج فإن لم يدفع فيحكم بالحبس ... ويحكم بالطاعة على الزوجة ، فإن لم تستسلم نقلت بقوة البوليس إلى بيت زوجها ، — وظللت أحكم بالطاعة وأنا لا أستسيغها ولا أتصورها . . . كيف تؤخذ المرأة من بيتها بالبوليس وتوضع فى بيت الزوج بالبوليس كذلك ؟ وكيف تكون هذه حياة زوجية ؟ إنى أفهم قوة البوليس فى تنفيد الأمور المادية كرد قطعة أرض إلى صاحبها ، ووضع المحكوم عليه فى السجن ، وتنفيذ حكم الإعدام ، ونحو ذلك من الأمور المالية أو الجنائية . أما تنفيذ المعيشة الزوجية بالبوليس فلم أفهمه مطلقاً إلا إذا فهمت حباً بإكراه أو مودة بالسيف . ولهذا كنت أصدر هذه الأحكام بالتقاليد لا بالضمير ، وبما فى الكتب والقوانين واللوائح لا بالقلب ، وكنت أشعر شعور من يمضغ الحصى أو يتجرع الدواء المرير ! » :

* * *

وأنا أقول إن « مضغ الحصى » و « طعم الدواء المرير » لا يعرفه إلا القاضى

المصلح الذى يرجى خيره ، وتلتمس عنده وجوه الإصلاح . فإن أولى بشارات التقدم عدم استساغة الأوضاع القائمة . أما القاضى الذى يستسلم للنصوص فيطبقها تطبيقا آليا دون أن يعيش فيها و يستشعر شعور من يطبقها عليهم فهو ليس إلا قفازا خشنا فى يد القانون ، وليس هو بالآدمى الإنسان الذى يستلهم قضاءه من عدل الله وصفاته على النحو الذى ينبغى أن يكون عليه القاضى الكامل .

فكراهية الدكتور أحمد أمين للقضاء لم يكن معناها أنه قصر فى أداء رسالته كقاض ، ولكن معناها أنه أحس بعبء المهنة قاسيا يثقل ضميره و يقض مضجعه ، وقد يكون رحمه الله رأى أن يؤثر التأرق فى البحث العلمى على معاناة السهر فى حمل هموم الناس وآلامهم . والشأن فى ذلك شأنه وشأن مزاجه الخاص . أما ما يعنينا نحن من أمره فإنه على أية حال لم يكن يؤثر النوم والراحة وحياة الخمول . ولئن كان أحمد أمين القاضى قضى سنواته الأربع فى خدمة القضاء وهو على مضض فإن سعداء الحظ من المتقاضين هم الذين نعموا بجلوسه على كرسى القضاء طوال هذه الفترة . و إلا فمن كان للزوج المقل بمن يرحمه من زوجته العنيدة ، و يحميه من كيدها المبيت وهى لا تطالبه بالنفقة إلا رغبة منها فى إذلاله و إعناته — ومن للزوجة المستضعفة بمن يدفع عنها بطش زوجها المستبد الذى لا يطلبها للطاعة إلا لجدع أنفها وتمريغ خديها فى التراب ؟ إن أحكام أحمد أمين — القاضى — لم تنشر ، ولكنا نحن عرفنا منها الكثير أثناء أحاديثنا ونجوانا ، ولمحنا فيها مخايل الاجتهاد الذى لا يعرف الجمود ، والذى يؤمن بأن الأحكام تتغير بتغير الظروف ، والذى يشمل كل شىء حتى تقييد النص ووقف العمل به . و إنه ليتأسى فى ذلك بعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكان يروى لنا عنه أنه مثلا لم يرد أن يعطى المؤلفة قلوبهم من الزكاة لأنه أدار الحكم على العلة وجودا وعدما ، فلما لم يكن الإسلام فى حاجة إلى تأليف القلوب لكثرة من دخل فى الدين الاسلامى ، وقف إعطاءهم

الزكاة . وكما حد المسلم حد الشرب ورآه بعد ذلك قد تنصر والتحق بالقسطنطينية ، آلى على نفسه أن لا يحد مسلما بعد ذلك . وسرق مسلم بن مُزَينَة فى أيام المجاعة ، فأمر بحده ثم أمر برده ، وألزم قبيلته أن تدفع ثمن الفاقة وقال : إنكم أجعتموهم فسرقوا ... إلى كثير من أمثال ذلك .

* * *

أما بعد . فلقد أرقنا نحن كما أرق من قبلنا القاضى أحمد أمين ، وكان سبب تأريقنا ما كنا نحسه من أثر سيئ للعقوبات التى يفرضها القانون على الجناة من غير تمييز بينهم . فالسارق فى نظر القانون لص يستحق العقاب سواء أكان قد سرق رغيفا ليطعم صغاره أو كان قد ابتز أموال المحتاجين لينفقها هو عن سعة فى الميسر وفى المواخير . فجعلنا نطبق أحكام القانون على الفريقين ونصيح فى الوقت نفسه مطالبين بالإصلاح حتى انتهينا إلى ما انتهينا إليه اليوم من إثارة وعى المشرع لأمثال هذه المفارقات . ومن هنا صدرت التشريعات الإصلاحية تترى . وأصبح من الممكن اليوم وقف تنفيذ عقوبة الغرامة بعد أن كانت الغرامة تنفذ ولو بالإكراه المدنى حتى على من لا يستطيع أداءها . كما أصبح من الممكن وقف تنفيذ الحكم الصادر فى الجناية بعد أن كان لا يوقف إلا تنفيذ الأحكام التى تصدر فى قضايا الجنح ؛ وأخيرا جاءت التشريعات الحديثة التى تعمل على إسقاط السابقة الأولى من صحيفة الجانى حتى لا تقفل فى وجهه أبواب المستقبل بسبب سقطة عابرة أو زلة ورطته فيها الظروف ولو لم نكن قد « مضغنا الحصى » ونحن نطبق العقوبات الأولى على مضض لبقيت تلك المظالم قائمة إلى اليوم يتجرع مرارتها أناس تنفعهم (الرحمة) أكثر مما ينفعهم (القانون) .

* * *

رحم الله أحمد أمين القاضى المصلح عداد نواياه الطيبة ومساعيه الجميلة ، وسلكه عنده فى زمرة الأخيار وصفوة الأطهار الأبرار .

طيف الأمين

بقلم الدكتور

زكى المحاسنى

يا صورةَ الخُلْدِ مَنْ أبداكِ فى الخلدِ
سحرُ البيانِ أمِ الطّمّاحُ للأَبَدِ

مثّلتُ وجهَكِ بالأنوارِ طافِرةً
من كوكبٍ بمزايا الفكر منفرِدِ

ذابَ الفناءُ على أطرافِ دولتهِ
ولفلفَ العدَمُ الأصداءَ بالنَّفَدِ

الموتُ أهكومةٌ مرّتْ مذاقتُها
يكرِّرُ الدهرُ بلواها على الأمَدِ

لولا تناغِيمُ أرواحٍ مدوّمةٍ
ترِفُّ بالصبحِ مثلَ الطائر الغرِدِ

تُطيف بالعبقريات التى غربت
عنا لتطلُع فى آفاقها الجُدُدِ

لضاع وجدُ قلوب من شقاوتها
فى عالم ضجَّ بالعدوان والحسدِ

(أمينُ) يا روعة التاريخ فى رجُلٍ
كأنه أمة موّاجة العَدَدِ

تصنّف الرأى فى الآداب حكمتُــــــه

وتجمع النصَّ من أَرجَائِهِ البِــــدَدِ

من فَجْر إســــلامه شعَّت منارتُهُ

ومن ضُحاه أتاه الحـــقُّ بالأَيَدِ

تقـــول آثارُهُ لله ما صَـــنعتْ

أقلامُهُ فى ليـــالى الدأبِ والجَلَدِ

لم يُعْنَ فى زُخْرُفٍ باللفظ مطلعُـــه

فصان تعبيرَه عن لُعْبَةِ الفَنَــــدِ

اِسْبَحْ بأفكاره من غـــيرِ ما غَرَقٍ

واُسْعَدْ بكُتْبٍ رعاها الصـــدقُ بالسَّنَدِ

أعلْمُ جامعةٍ أبقى (الأمين) لنـــا

أمْ مكتباتٌ جلاها اليـــومُ رهنَ غدِ

ما صـــورةُ الجسم إن زالت معالمه

وأين أندبُ أطلالاً من الجَسَـــدِ

كان المجىء إلى الدنيا ضـــلالَ هَوىً

فلا تضلّلْ أخا العلياء عن رَشَدِ

نرضىَ زيادَةَ يومٍ من أحبَّتنـــــا

فيا حبيبُ ببُعْدٍ منك لا تَعِـــدِ

هذا الخيـــالُ وراء النفس يغمرُنى

فكيف أُطْلقُه من سِرٍّ مُلْتَحِـــدِ

ما حقَّ فيــــكَ زوالُ جَفٍّ مدمعُهُ
وكمْ عَزاء بلا معنًى ولا صَـــــدَدِ

قل لى — وتسمَعُ من خلفِ الغيوب لُغًى —
ماذا ترى من فراديسٍ ومِنْ بَـــــلَدِ

أمجلسٌ لك فى الأرواح تعقـــــدُهُ
على حديثٍ صــــفا أو بحث منتقِدِ

أدِرْ بسُبُّحَةٍ طيبَ الِحوار فمـــــا
فيضُ الخواطر إلا منـــــكَ طوعَ يَدِ

يا (أحمدَ) الصُّنْع ذكراك التى انبعثت
حمداً لمســــعاك أو وجْداً على الـكبدِ

عزّتْ بهـــــا مصر فى تشييدِ نهضتها
كشُعْلةٍ منكَ للأَجْيـــــال والوَلَدِ

أحمد أمين ... الجامعة

بقلم الدكتور

شوقى ضيف

كان أحمد أمين قُدْوةً مُثْلَى لتلاميذه فى الجامعة من الناحيتين الخلقية والعلمية ، أما من الناحية الخلقية فكان بارًّا بهم ، يخص كل واحد منهم بقسط من عنايته واهتمامه ، فى وفاء أصيل وتواضع جميل ، فلا تعالى ولا كبرياء ، وإنما القرب والألفة وشفقة الوالد على أبنائه .

فكنا منذ تعرفنا عليه نشعر أننا لسنا فى بيئة غريبة عنا ، بل نحن معه نؤلف أسرة قوامها التعاون على الخير ، وأساسها التعاطف الكامل الذى يوحّد بين الأساتذة وتلاميذهم ، فإذا هم ينشدون وجهة واحدة من البحث العلمى الخالص لوجه الوطن ووجه الحق .

وأُشْرِبَ قلبُ أحمد أمين محبةَ الحق كما أُشْرِبَ محبةَ الحرية منذ شبابه الأول ، فقد تعوّد أن يقول الحق فى صراحة وحرية غير مفتعلة ، وكان له فى ذلك مواقف معروفة ، وظل حتى آخر حياته لا يقول إلا ما يؤمن به إيمانا عميقا فى ذات نفسه .

وليس معنى ذلك أنه كان يتعبّد للآراء التى يصل إليها ، بل كان يُمَرّننا على خلافه وأن نرى الرأى مناقضا لرأيه ، يريد بذلك أن تكون لنا أصالتنا فى الفهم والحكم ، لا مجرد الجدل والمناقشة فى غير طائل .

وكان كل ما يحكم به أن ترفع الحواجز بين الطلاب فى الجامعة وأساتذتهم وأن لا يكتفوا بما يدوّن فى المحاضرات ، بل يتحولوا إلى الأروقة وحُجَر البحث

يتجادلون و يتحاورون ، لا فرق بين كبير وصغير ولا شيخ ولا شاب إلا بمقدار التجربة والسبق إلى معرفة الحقيقة ، فإذا أثبت شاب أن عنده دقة فى الفهم وأنه يحسن تصور المسائل والحكم عليها كان أول من يشدّ على يديه .

كنا نلتفّ حوله ونبادره بالأسئلة ومناقشة آرائه ، وكثيراً ما كنا نخالفه ، فلا يتبرم ولا يضيق بنا ، يقبل علينا ، و يشجعنا أن نمضى فى خلافه ، وأن نبسط رأينا بكل دقائقه ، و بكل ما يسنده من أدلة و براهين ، فإذا تبين له أنه على خطأ أعلن عن رضا أنه أخطأ وأن الحق فى جانب الطالب ، وأنه يشكره ويثنى عليه .

ولهذه الروح العادلة فيه كنا نحبه ، ونخلص له . و يظهر أنه كان لحياته الأولى فى القضاء أثر واسع فى هذه العدالة ، فقد انتقل إلى التدريس فى الجامعة ، ولكن ظل مُمْسِكا بموازين العدل فى آرائه وما ينثره من أحكامه ، فلا هَوًى ولا تحيز ولا تعصب .

وكان يعجب لمن يتعصبون لآرائهم أو يتحيزون ، فالعلم فى رأيه لا يعرف التحيز والتعصب ، بل هما عدواه اللدودان ، فمن تعود أن يحملهما كان حريا به أن لا يجمع بينهما و بين العلم لا فى عقله ولا فى صدره . وكان يقول فيم نتعصب وقد خلقنا الله أحرارا ، كأنه كان يعتقد أن التعصب ضرب من ضروب العبودية يخالف معانى الإنسانية ومثلها الرفيعة .

ومن أشد ما كان يحرص عليه غرس المثالية الخلقية فى نفوس تلاميذه ، فكان يقول إن العلم بدون خلق ليس شيئاً مذكورا ، وكان ما يزال يعوّد طلابه أن يغاروا على الفضيلة و ينفروا من الرذيلة ومن كل عمل مستهجن يشين صاحبه .

وكان كل همه أن يخلق منا باحثين ، وكان لا يدخر جهداً فى غايته من ذلك ، فهو ينوه تارة بمن يقدمون بعض البحوث ، وتارة يسعى إلى نشرها فى المجلات والصحف ، وكان إذا قرأ لأحدنا مقالا فى موضوع أدبى أشاد به بين

إخوانه ، ودعاهم إلى أن يحذوا حذوه . وقلما اشتهر أحد خريجى قسم اللغة العربية فى صحافة وغير صحافة إلا كان لأحمد أمين فضل تشجيعه واستغلال ملكاته .

وكان يدرس لنا الحياة العقلية ونشأتها عند العرب وتطورها فى العصرين الأموى والعباسى ، فيحلل عناصرها تحليلا دقيقا ، ويردها إلى أصولها العربية والأجنبية من فارسية ويونانية وهندية . وما زال يسلط أشعة عقله وبحثه على هذه الحياة حتى استنارت لنا من جميع جوانبها ، وإذا الذى كنا نظنه شيئاً عسير الفهم بعيداً عن عقولنا وتفكيرنا من فقه وحديث وألوان ثقافات مختلفة قد أصبح دانياً منا مألوفا لنا ، وأصبحنا نتمثله ، بل تدخَّلنا فى فهمه والحكم عليه وعلى أصحابه .

ولم يكن يسوق آراءه فى هذه الحياة منبتَّة الصلة بآراء من سبقوه ، بل كان يعمد إلى هذه الآراء فى مظانها العربية والغربية فيقرؤها ويعرضها علينا عرضا واضحا ، وما يزال يناقشها حتى يستخرج لنفسه رأيا جديدا يستمده عن نظرة عادلة حقة . وكان إذا انتهى إلى رأى معين أصبح يؤمن به ، ولم يعد يخاف فيه من يخالفونه ، بل يعلنه قاطعا صريحا فلا حياء ولا مواربة فى العلم .

وقد غضب الشيعة حين عرض للتشيع فى كتبه ، وخاصة فى فجر الإسلام ، وحملوا عليه حملات شعواء ، ولكنه كان يلتقَّاها بصدر رحب ، ولم تستطع هذه الحملات أن تغير رأيه ، بل ظل حتى آخر حياته يعتقد أنه لم يتجنَّ عليهم ، وقد عاد إلى الكتابة آخر حياته عن التشيع والمهدى والمهدوية ، فلم يعدل عن آرائه القديمة ، إذ اعتقد فيها أنها الحق ، فلم يعد يخشى لومة لائم .

وهو كذلك فى الكتابة عن أهل السنة ، كان ينقدهم نقدا عادلا ، فكان يأخذ عليهم أنهم لم يوسعوا آفاق فكرهم بل ظلوا به محصورا فى آماد محدودة من المحافظة ، بينما كان يعجب بالمعتزلة وعقلهم الحر الذى حكّموه فى الأشياء وفى الأشخاص وفى أصول الدين والعقيدة .

ولم يكن فى كل هذا يتعنت أو يخرج عن حده الطبيعى ، بل كان مع مخالفته

لبعض الفرق الإسلامية فى آرائها ونقدها يعطف عليها و يتمنى لو لم تكن هذه الفُرْقة فى الإسلام ، ويود لو أنها تقاربت ، ولم تقف كل منها بعيدة عن صاحبتها ، فالمؤمنون إخوة ، وحرى بهم أن يتعاونوا ، وأن لا يسود بينهم خلاف بأى وجه من الوجوه ، حتى لا يضعفوا أمام خصومهم الحقيقيين من الأوربيين المستعمرين .

وعلى هذا النحو كان له فى أبحاثه الجامعية أسلوب واضح وأهداف واضحة ، وكان كل ما يهمه أن يخرج منا علماء قادرين على البحث المتئد المنظم . وكان دائما يوصينا أن يتعرف كل منا على طبيعته وما يحب أن يعمل فى غده و يتخصص فيه ، ويُعِدّ نفسه لذلك منذ تلمذته حتى لا تفوته فرصة الوقت . وكثيرا ما كان ينصحنا أن نهتم بطريقة الجذاذات وأن نتعود جمع المعلومات ، فإذا قرأنا كتابا قديما أو حديثا قيَّدنا أهم ما فيه من مسائل ، حتى إذا احتجنا لها فى المستقبل لم نضطر إلى قراءة الكتاب كله ، وخاصة الكتب القديمة لأنها غير مفهرسة ، وكثير منها غير مبوّب . وكان يقول ليتنى عرفت فى مطلع شبابى أنى سأهتم بدرس الحياة العقلية عند العرب إذن لهان علىّ الطريق .

وكان من أشد ما يكرهه المناقشة اللفظية غير المجدية وما ينطوى فيها من مغالطات ، وكان يقول لنا إن هذه طريقة قد بليت ، وحلَّت محلها طريقة عقلية أخرى ، هى طريقة التحليل والاستقراء ؛ أما الوقوف عند الألفاظ فإنها لا تفيد شيئا سوى ضياع الوقت ، إن كان هذا مما يعد فائدة . وماذا تفيد من تحقيق هذه الكلمة أو تلك وربما كان كل ما تؤديه هى وأخواتها لونا من ألوان الغلط فى الفكر . إن المهم ليس الكلمة وتحقيقها ، إنما المهم الموضوع وتشقيق معانيه ومعرفة خطوطه الأساسية والفرعية . ولقد أسرف القدماء فى بحث الكلمات والألفاظ كما ترون فى حواشى علوم النحو والبلاغة ، وما أفاده الأدب من ذلك قليل ، بل لقد انفصلت هذه الأبحاث عن الأدب ، لأنها دارت فى مجالات لفظية لا قيمة لها ولا غناء فيها . فإياكم أن تعودوا بنا إليها وأن تظنوا أنكم بهذا التشدق قد أحسنتم شيئا ، بل

على العكس تكونون قد انصرفتم عن واجبكم وعن مشاكلكم الذهنية الحقيقية إلى مشاكل لفظية فارغة . و بدلا من أن تضيعوا أوقاتكم فى تحقيق كلمة أو لفظة ضيّعوها ، بل اكسبوها وار بحوها فى تحقيق كتاب ، بمعنى أن تلخصوه فى مقال أو مقالين ، وحبذا لو عرفتم ما فات صاحبه ، ولكن لا لتقرّعوه ، بل لتنبهوه ، فيكفيه فضلا أنه السابق ، وما كان لسابق أن يمنع لا حقا من الزيادة عليه أو من نقده فى موضع النقد الصحيح .

وأقولها منصفا إن أحمد أمين كان مثلا ممتازا للجامعى العالم الذى يستهدف الحقيقة فى أبحاثه ، كما يستهدف تعليم استنباطها لتلاميذه . وكان يضرب لهم خير الأمثلة فى دراسته للحياة العقلية العربية ، فهو يبحث بحثا هادئا متزنا فى طبقات هـذا العقل و يردها إلى مكوّناتها وجزئياتها ؛ بل ذراتها المختلفة ، و يتعقبها فى أصولها منذ الجاهلية وفروعها وما رسب عليها فى الإسلام .

وليس البحث مجرد كلام أو تهو يلات أو طنين ورنين ، بل البحث نصوص ودأب فى الحصول على النصوص من بطون الكتب القديمة وذخائر العقل العربى ، ثم مقابلة واسعة لهذه النصوص ، وتحليل بارع لها فى مخابير العقل ، وتسجيل لهذا التحليل فى نزاهة و إنصاف .

وكان من أهم ما يروعنا عنده كثرة اطلاعه ، فقد تحولت عنده القراءة إلى هواية يجد فيها كل ما تشتهى نفسه وتقرّ به عينه ، وكأنها أصبحت نزهة ، و يلذه أن يقطع هذه النزهات ، ثم يقص على طلابه وقرائه ما رآه فيها بدون تحيز و بدون محاولة لاعتساف رأى ، بل مع التواضع الشديد .

ومن الناس من يحدثون ضجيجا هائلا حين يصلون إلى فكرة جديدة أو يكتشفون معنى جديدا ، وكم وصل أحمد أمين إلى فكر ومعان ، بل إلى أبحاث تامة ، بل لقد أنار عوالم كاملة من حياة العرب العقلية فى عصورهم المختلفة ، ومع

ذلك لم يهول على الناس ولم يحدث جلبة ولا قرقعة ، بل كان مثال العالم الحق الذى ينكر نفسه و يترك للناس أن يكتشفوه و يعرفوه .

و يدرس أحمد أمين البلاغة العربية ، فيراها قاصرة عن أن تحيط بقواعد الأدب الحديث الذى يستمد أعلامه من الغرب وآثاره ، فرأى أن يقرأ البلاغة الغربية والنقد الغربى ، ليفصّل لبلاغتنا ثوبا جديدا لا يضيق بأدبنا الحديث ولا يقصر عن أن يحيط به .

وكان كلما درس فى الأدب موضوعا ورأى له نظيرا عند الغربيين قرنه به ، فإذا درس الطبيعة عند شعراء العرب قرنها بالطبيعة عند أصحاب المنزع المعروف بالرومانسية الذى شاع فى أوربا أثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر . وهكذا كان لا يزال يتعب نفسه ، ولا يزال يطلب المثل الأعلى فى الدرس ، وكلما اجتاز عقبة فكّر فى اجتياز أخرى ، حتى إذا هانت له واجتازها تحول إلى عقبة جديدة دون أن يكلّ أو يمل .

وهو فى كل ما حاول من بحث لم يكن يزعم أنه وصل إلى الكلمة الأخيرة ، بل كان يردد أنه يقول الكلمة الأولى ، ولغيره أن يقول من بعده كلماته ، فالأبحاث أبوابها مفتوحة ، ومن شأنها أن تظل مفتوحة دائما ، ليلتقى كل باحث بآرائه وأفكاره وما انتهى إليه .

ولعل فى هذا كله ما يوضح كيف كان أحمد أمين مثلا كريما للأستاذ الجامعى فى خلقه وعلمه ، وهو مَثَلٌ يقوم على الإيثار ومحبة الخير والحق ، وأن يكون الإنسان منصفا لنفسه ولغيره من الناس ، وأن يكون متواضعا تواضعا أصيلا فى ذاته وفى بحثه ، لا تأخذه عزة العلم بغرور ولا إثم .

أحمد أمين ... العالم

بقلم الدكتور

طه حسين

رآني ضحى ذلك اليوم غارقا مع أحد الأصدقاء فى كتاب قديم من كتب الأدب العربى نهيئه للنشر ، وكنا مقبلين عليه أشد الإقبال حتى صرفنا عن كل شىء وعن كل إنسان وحتى كدنا نصبح نصا من هذه النصوص القديمة الرائعة التى كنا نقرأها ونقومها ، وكانت تبلغ قلوبنا فتملكها وتبلغ عقولنا فتبهرها . وكان أبغض شىء إلينا فى ذلك الضحى أن يقطع علينا ما نحن فيه زائر مفاجىء أو حديث يحمله التليفون .

وقد أبى الله إلا أن يمتحننا من ذلك بما نكره ، فهذا التليفون يصلصل ، وليس بد من الرد عليه ، ولكن الرد عليه يحمل إلينا أبغض الأنباء موقعا من آذننا وأثقلها على قلوبنا . . . فهو ينعى إلينا صديقا حميما وزميلا كريما وأخا طالما نعمنا بما كان إخاؤه يمتعنا به من الأنس والبشر فى أيام الشدة .

وكنت أعلم أن هذا الأخ الكريم مريض ، ولكنى كنت أعلم أنه كان أقوى من مرضه ، فكان يكابره أشد المكابرة ، ويعاند آلامه أعظم العناد لا يذعن له إلا ريثما يثور به ؛ ولا يستجيب لدعاء الطبيب إلى الراحة إلا ريثما يخالف عن أمر الطبيب ويلقى بنفسه إلى الجد والكد والعناء .

كانت حياته كلها مغالبة لم تستقم له الأمور على ما أحب فى يوم من الأيام منذ كان صبيا يختلف إلى الكتاب حتى أصبح شيخا يختلف إلى مجالس الزملاء والأصدقاء فى المجمع اللغوى ، وفى لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وكانت أحكامه

على أموره كأحكام غيره من الناس تخطىء وتصيب ، ولـكنها كانت تتفق دائما على شىء واحد وهو أنها كانت تصور له الأمور على غير ما يحب أن تكون وتدفعه إلى الجهاد والمقاومة والمغالبة ، فكانت حياته نشاطا متصلا وصراعا غير منقطع ، وكان أثقل شىء عليه وأبغض شىء إليه فيما علمت منه وفيما سمعت عنه أن لا يجد فى نفسه القدرة على النشاط ، والصراع ، والمغالبة ، وأن تعوزه الأدوات التى تتيح له ما كان يحب من النشاط والصراع والمغالبة .

كان يريد أن يغير الدنيا من حوله . وليس تغير الدنيا ميسرا للناس جميعا ولـكنه كان يريد أن يحاول من ذلك ما يستطيع ، فيستقيم له التغير فى بيئته الخاصة وفى بيئته الجامعية بعض الشىء ، ويستعصى عليه فى بيئات كثيرة كل الاستعصاء فيسعد قليلا ، ويشقى كثيرا ، فكنت تراه دائما قليل الرضى كثير السخط ، موزع النفس بين سرور قليل متقطع وحزن كثير يوشك أن يكون متصلا حتى أنكر من نفسه كثيرا من أمره ، وحتى أنكر الناس منه كثيرا من أمره أيضاً ، وحتى نظر إليه زملاؤه وأصدقاؤه نظرة فيها كثير من الحفظ والاحتياط ، فكانوا يتحدثون إليه مشفقين من ثورته ، أو متوقعين لثورته . وكانوا يتكلفون من الرفق به أكثر مما كانوا يتكلفون حين كانوا يتحدثون إلى غيره من الأصدقاء . وربما تندر به زملاؤه وأصدقاؤه وداعبوه فى شىء كثير من الحب والرفق فسموه « العـدل » ونادوه بهذا الاسم وتحدثوا عنه بذلك فأكثروا الحديث ، حتى كاد العدل يصبح له اسما ثانيا . ولم يكن لهذا كله مصدر غير تحرجه المتصل وتحفظه المقيم وتعرضه لالتماس الصعب من الأمر وتجنبه ما كان من الأمر يسيرا قريبا .

وما أشك فى أن موقع نعيه من نفوس الذين عرفوه من قرب أو من بعد قد كان موقع الخطب المفزع الممض ؛ ولـكن الشىء الذى أشـك فيه وأرجو كل الرجاء أن أكون مخطئا فى هذا الشك هو موقع هذا النعى من نفوس الـكثرة من

المثقفين الذين ألفوا اليسر فى هذه الأيام وكرهوا كل ما يكلفهم مشقة أو يعرضهم لشىء من العسر .

والأحداث تجرى فى هذه الأيام كثيرة مختلفة متباينة ، يتبع بعضها بعضا فى سرعة سريعة ، والناس يقرأون أنباءها مسرعين و يتأثرون بها مسرعين أيضاً ، حتى أصبح بعضها وكأنه ينسخ بعضا ، وحتى أصبحت القلوب والعقول والضمائر وكأنها الصخور الملس تنزلق عنها الأحداث الخفاف والثقال والخطوب النحاف والغلاظ دون أن تترك فيها أثرا .

ومع ذلك فقد كان نعى أحمد أمين خطباً مزعجاً مفزعاً مروعاً بأوسع وأدق ما تحتمل هذه الكلمات من المعانى ؛ وأنا أعلم كما يعلم غيرى من الناس أن الموت حق ، وأنه ورد مورود لا يستطيع أحد أن ينصرف عنه ولا تستطيع أحداث الدنيا أن تصرف عنه أحداً

وأعلم كذلك أن المنايا خبط عشواء كما كان زهير يقول فى بيته المعروف ، وأعلم أنها إذا نشبت أظفارها لم تنفع التمائم ولا الرقى ، كما كان أبو ذؤيب يقول فى بيته المعروف أيضا .

أعلم هـذا كله كما يعلمه الناس جميعاً ، وأعلم كذلك أن إيماننا بهذا كله لم يستطع ولن يستطيع أن يذود عنا الحزن والأسى ، أو يصرف عن قلوبنا اللوعة والحرقة والحسرات حين نفجع فى عزيز علينا أو أثير عندنا .

فالقلوب تأسى والعيون تدمع والنفوس تغرقها اللوعة ، والإيمـان بالقضاء مع ذلك موفور ، والإذعان لأمر الله مستقر .

و إنما الشىء الذى قد لا يحققه كثير من النـاس هو أن المحنة فى أحمد أمين ليست مقصورة على أسرته و بنيه وأصدقائه الأدنين ، و إنما هى محنة تتجاوز هؤلاء جميعاً إلى وطنه كله .

بل أقول غير غال ولا متكلف أنها تتجاوز هـذا الوطن المصرى إلى العالم العربى والإسلامى كله .

وأقول كذلك غير غال ولا متكلف أنها تتجاوز هذا العالم العربى الإسلامى إلى البيئات الأجنبية التى تعنى بالدراسات العربية والإسلامية فى أوربا وأمريكا .

فلم يكن أحمد أمين فردا من الأفراد النابهين فى مصر فحسب ، وإنما كان أحمد أمين مجداً مؤثلا لوطنه ، وكان عالما مؤثراً أعمق التأثير وأبعده فى حياة هذا الوطن ؛ وفى البيئات التى تعنى بالدراسات العربية الإسلامية فى جميع أقطار الأرض .

وحياة أحمد أمين قصة من أعظم القصص الحية روعة وأعمها تأثيراً ومن أعظمها حظا من البراعة

وانظر إلى هـذا الصبى الذى نشأ فى أسرة متواضعة من الأسر المصرية وفى حى متواضع من أحياء القاهرة ؛ وينشأ نشأة كأشـد ما يكون تنشىء الشباب تواضعاً فيدرس فى المدرسة المدنية ثم يتحول عنها إلى الأزهر ثم يتحول إلى مدرسة القضاء ثم يصبح قاضياً تتقاذفه المحاكم الشرعية فى أرجاء مصر ثم يعود مدرساً فى مدرسة القضاء ثم يرد بعد ذلك إلى القضاء الشرعى ؛ وهو فى أثناء هذا كله قلق لا يعرف اطمئناناً ولا استقراراً ، لأنه يجهل نفسه ويحاول أن يعرفها فلا تتهيأ له هذه المعرفة كما يريد ، هو يلتمس نفسه فى كتب الفقه وفى علوم الدين كلها فلا يجدها ، ويلتمس نفسه فى الأدب العربى وفى اللغة العربية فلا يجدها ؛ ويلتمس نفسـه فيما كان عاطف بركات رحمه الله يلقى على طلابه فى مدرسـة القضاء من دروس الأخلاق وفلسفتها على نحو ما كان الإنجليز يدرسـون الأخلاق ويفلسفونها ، فلا يجدها ؛ ثم هو يلتمس نفسه فى حياته فلا يجدها فى القضاء الشرعى ولا يجدها فى ذلك التعليم المحدود ، ذى الآفاق الضيقة الذى كان يلقى فى مدرسة القضاء . هو يبحث عن نفسه ، ويعلم أنها قريبة منه يوشـك أن يلمسها أن يمد إليها يده ؛

ولكنه يمد إليها يده مرة ومرة فلا يجدها ولا يلمسها إنما يحس أنها بعيدة عنه أشد البعد .

وهو يحاول أن يخرج من حياته تلك التى أضل فيها نفسه فيتصل ببيئات المطر بشين وينشىء معهم لجنة التأليف والترجمة والنشر .

ويأخذ فى تعلم اللغة الإنجليزية ويخيل إليه أن الأمد بينه وبين نفسه قد أصبح قريباً ، ولكنه على ذلك يلتمسها فلا يظفر بها .

وألقاه فى يوم من أيام حيرته تلك ، وقد زارنى حين أخذ المساء يدنو ويدنو معه هذا الحزن الذى تعرفه النفوس الحية فى الأصيل .

ولا أكاد أتحدث اليوم حتى أحس منه حزناً كهذا الحزن الذى كنت أحسه من ذلك الأصيل الذى كان يظلنا فى مجلسنا ذاك فى شارع رمسيس بمصر الجديدة .

وإذا هو ضيق بعمله فى القضاء أشد الضيق . وإذا هو طامح إلى شىء مجهول لا يحققه ولكن طموحه إليه شديد .

كل ما يعنيه هو أن يخرج من حياته تلك التى لا يستطيع عليها صبرا .

ونفترق فى ذلك اليوم وقد أزمعت فى نفسى أمراً ، فإذا كان الغد تحدثت بما فى نفسى إلى أستاذنا الجليل أحمد لطفى السيد ، فإذا كان المساء دعوت أحمد إلى لقائى ، وعرضت عليه التعليم فى الجامعة فيشك غير طويل ثم يستجيب .

ولا يكاد يستقر فى كلية الآداب شهراً وبعض شهر حتى يجد نفسه تلك التى طال البحث عنها وشقى بالتماسها أعواما طوالا .

وانظر إلى آثاره العلمية التى دفعته الجامعة إلى إنشائها فسترى نفس أحمد أمين واضحة كأقوى ما يكون الوضوح ، وسترى شخصيته ماثلة قوية تفرض نفسها فرضا .

كانت نفسه إذن ضائعة منه فى كلية الآداب ، ولم يكن له بد من أن يلتمسها فى هــذه الــكلية شأنه فى ذلك كشأن ذلك البطل الذى عرفناه أيام الصبى فى أحاديث العجائز ، ذلك الذى كان يكلف من الغايات فيذهب فى التمـاسها كل مذهب و يركب فى طلابها كل مركب ، و يتعرض للأخطار الجسام ، والأهوال العظام و يمتحن بلقاء الغول بعد الغول ثم يظفر آخر الأمر بما كان و يصبح رجلا سعيداً كأحسن ما تـكون السعادة موفور الحظ من نعمة العين ورضاء البال .

وقد وصل أحمد أمين إلى غايته ووجد نفسه فى الحياة العقلية الإسلامية فألف فيها فجر الإسلام وضحى الإسلام وأهدى بهذه الـكتب إلى العالم الحديث بتاريخ العقل الاسلامى كنزا من أقوم الـكنوز وأعظمها حظا من الغنى وأقدرها على البقاء ومطاولة الزمان والأصراح .

فلأول مرة فى التاريخ الاسلامى عرض تطور الحياة العقلية للمسلمين فى القرون الثلاثة الأولى عرضا دقيقا صحيحا صادقا ملائما للعقل الحديث . وكذلك استطاع ذلك الشيخ القديم الذى لم يجد نفسه فى الأزهر ولا فى مدرسة القضاء ولا فى الأعمال المختلفة التى تقلب فيها والذى كان شيخا ضائعا بين شيوخ ضائعين أن يفرض نفسه على الحياة العلمية فرضا وأن يظفر بإعجاب المواطنين والأجانب من العلماء ، وأن يصبح ثقة فى تاريخ الثقافة الإسلامية ، لا بالقياس إلى تلاميذه وزملائه فى مصر والعالم العربى ، بل بالقياس إلى كل من يعنون بهذا النحو من أنحاء العلم فى أقطار الأرض كلها .

ومصدر هــذا أن ذلك الشيخ الذى كان ضائعاً لم يكن كغيره من الشيوخ الضائعين . و إنمـا كانت فى نفسه جذوة خفية قد تـكاثر عليها الرماد حتى أخفاها حتى على تلك النفس التى كانت تحملها وتحترق بها .

ولم يكن بد من أن يصل الجامعة ليزول الرماد المتكاثف ، وإذا هى تبدو ساطعة لامعة تملأ الأرض من حولها نوراً وهاجاً يستضىء به الطلاب فيستزيدون من العلم ويستحبون هذه الاستزادة ويستضىء به الزملاء فيستعينون بهذا الضوء على أن يبحثوا ويجدوا وينتجوا ، ويستضىء به المستشرقون الأجانب فيصنعون صنيع الزملاء من المواطنين .

لن يجحد فضل أحمد أمين على هذا اللون من ألوان الثقافة الإسلامية إلا جاهل لا يعبأ الله به ، ولا يأبه الناس له ، أو جاحد لا خير فيه لنفسه ولا للناس .

ومهما يكن رأى الناس فى أحمد أمين فلن يشك فى فضله على الثقافة الإسلامية إلا الذين لا خلاق لهم من الجاهلين والجاحدين .

ومع كل هذا فلم يرض أحمد أمين عن نفسه لأنه لم يجدها كاملة كما كان يجب أن يجدها .

كان يريد أن يعرف كل شىء وأن ينتج فى كل شىء وأن يسيغ كل شىء كما أساغ تاريخ الثقافة الإسلامية .

ولكن الإنسان الذى يستطيع أن يعرف كل شىء ، وينتج فى كل شىء ، لم يوجد بعد ، وما أرى أنه سيوجد آخر الدهر .

ومع ذلك فقد حاول أمين محاولات لا تحصى ، فهو ينفرد بالإنتاج مرة فى هذا اللون من ألوان المعرفة ، ويشارك مرة أخرى هذا الزميل أو ذاك من زملائه وهذا الطالب أو ذاك من طلابه فيبلغ بهذا كله ما يستطيع لا ما يريد ولا ما يريد له المخلصون من الصديق : ولكنه كأى كادح دائما لا يستريح ولا يريح ؛ تراه مؤلفاً للكتب وكاتباً فى الصحف ، ومشرفاً على نشر الأدب القديم ومشاركا فى هذا النشر ، ومدبراً لكل ما وكل إليه من أمر فى كلية الآداب ، أو فى جامعة

الأمم العربية ، أو فى لجنة التأليف والترجمة والنشر ، أو فى إدارة الثقافة العامة ، أو فيما شاء الله من الأعمال المختلفة التى شارك فيها والتى لا تكاد تحصى .

كانت نفسه أشبه شيء بالنصل الذى يبلى غمده ، وبالجذوة التى تحرق جسمها . وقد أبلى غمده وأحرق جسمه ، ولم يقتنع مع ذلك بأن غمده قد أدركه البلى ولا بأن قد جعلته تلك الجذوة الداخلية رمادا . فكان يكلف هذا الجسم البائس على مرضه وأدوائه ما لا تتكلفه أجسام الأصحاء .

وقد فارق الدنيا رحمه الله وهو يتكلف الإنتاج والعمل الخصب . وقضى وإن له لكتباً منها ما يطبع ومنها ما يهيأ للطبع .

فإذا لم يكن أحمد أمين مثلا رائعاً للجد المنتج والنشاط الخصيب والمثابرة التى لا تعرف كللا ولا مللا والمقاومة التى لا تعرف ضعفاً ولا فتورا والثقة التى لا تعرف شكا ولا ترددا فلا ينبغى للمصريين أن ينتظروا مثلا رائعا من أى مواطن آخر .

أما أنا فأومن بأن أحمد أمين قد كان صورة رائعة صادقة لوطنه هذا الخالد .

وهل مصر إلا جذوة حية قوية تكاثف عليها الرماد حتى جهلت نفسها وهى تحاول الآن أن تزيل عن نفسها هذا الرماد بجهد المؤمنين الصادقين من أبنائها ، من أمثال أحمد أمين .

فما أجدر المصريين أن ينشدوا إذا ذكر لهم موت أحمد أمين قول ذلك الشاعر القديم :

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحما

وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

وأنا أرجو مع ذلك أن يكون لمصر فى المؤمنين الصادقين من أبنائها شىء من العزاء .

وأنا واثق آخر الأمر بأن من ألف فجر الإسلام وضحى الإسلام وظهر الإسلام أبقى على الأيام من أن يدركه الموت .



أحمد أمين بمكتبه بالإدارة الثقافية بالجامعة العربية

أحمد أمين ... المجاهد

بقلم الدكتور

عبد الرزاق أحمد السنهورى

قد كنتُ أوثر أن تقول رثائى   يا منصف الموتى من الأحياء

كنتُ أخشى هذا اليوم — يوم أرثيه — بعد أن رأيتُ المرض قد ألح عليه ، وتغلغل فى جسمه ، ولم يُبق منه إلا عقلا يقظا ، وإلا قلبا ينبض بحب العمل . فكنتُ أقول فى نفسى : أتكونُ منيته أقرب من منيتى ؟ وهل تراه يودع الدنيا قبل أن أودعها ؟ وهل ترانى أنا الذى أرثيه لا هو الذى يرثينى ؟ ثم أنتهى إلى قول الشاعر العربى :

لعمرى وما أدرى وأنى لأوجل   على أينا تعدو المنية أول

لقد عدت عليه المنية أولا ، ويا للفجيعة فيه . وكلنا لا حقون به . وما الحياة إلا طريق الموت . من يولد يعش ، ومن يعش يمت ، وهذه هى كل قصة الحياة . فما أقسى حظ الإنسان فى هذه الدنيا .

يدور كدود القز ينسج دائما   ويهلك غما وسط ما هو ناسجه

ولكن بين الميلاد والموت يعيش الإنسان وقتا يطول أو يقصر . وهذا هو الوقت الذى يسجل فيه الحضارة البشرية على هذه الأرض . ويتعاون الناس جميعا فى تسجيل هذه الحضارة . فمنهم من يكون نصيبه تافها أو معدوما ، ومنهم من يكون نصيبه كبيرا موفورا . وفقيدنا أحمد أمين من الناس الذين كان نصيبهم فى تسجيل الحضارة كبيرا موفورا .

لم يعش لنفسه بقدر ما عاش للناس . فرض على نفسه الجهاد فى الحياة . بل

لعل الجهاد هو الذى فرض نفسه عليه ، فلم يكن يستطيع منه خلا صا . عاش مجاهدا ، ومات مجاهدا ، ولم يختره الله لرضوانه إلا بعد أن أبقى اسمه على كل لسان وفى كل قلب ، رمزا للعلم الواسع ، وللعقل الـكبير ، وللخلق العظيم . خدم العلم فأحسن خدمته ، وجاهد فى سبيل الحق فأعلى كلمته ، وكان فى هذا البلد رجلا حين تعز الرجال — جاهد جهادا طو يلا عنيفا موفقا ، وآن له اليوم أن يلقى سلاحه وأن يرتاح ، بعد أن أصبح مثلا يقتدى به فى العمل والصبر والجهاد .

* * *

رأيت أحمد أمين أول مرة فى مدرسة القضاء الشرعى . كان ذلك فى سنة ١٩٢٠ . وكنتُ قبل ذلك وكيلا بالنيابة العامة ، فتركت وظيفتى هذه إلى وظيفة بمدرسة القضاء الشرعى لتدريس القانون ، فقد كنت شغوفا بالفقه القانونى، ولم يكن لى إليه إلا هذا السبيل . وأشهد أنه كان سبيلا رحبا كريم الوفادة ، وقد استقبلنى منذ بدايتى فيه الأستاذ عاطف بركات ، ناظر المدرسة ، استقبالا ينطوى على كثير من العطف والود . ثم عرفتُ فى المدرسة كثيرا من أساتذتها ، وأولهم أحمد أمين .

كان إذ ذاك شابا معمما ، يبـدو على وجهه من إمارات الجد والرزانة ما يجعل مظهره يزيد على سنه ، لولا دعابة عرفت عنه ، وفكاهات ظريفة يتحدث بها إلى سامعيه من وقت إلى آخر ، فكانوا يضحكون لها ويكون هو أول الضاحكين . ولعل هذا القليل من المرح هو الذى كان يلطف من حدة الجد فى حياته ، وكان إخوانه وزملاؤه من أجل ذلك يستلطفون عشرته ، ويستطيبون صحبته .

ولم تلبث صلتى به أن توثقت . فقد راقنى منه — إلى جانب هذا المرح — نظرة عميقة إلى الحياة ، ونفس صافية لا زغل فيها ولا كدر . وانقلبت هذه الصلة الوثيقة إلى صداقة متينة فى خلال شهور قليلة ، فقد أقبل كل منا على صاحبه ،

واغتبطتُ جد الاغتباط بهذه الصداقة الجديدة ، فقد كنتُ بطبعى أتوخى الدقة فى اختيار أصدقائى ، وأميز بين الصديق والزميل ، فلا أدخل فى نطاق الصداقة إلا عدداً محدودا ممن أستصفى ودهم .

ولفت نظرى فى صديقى الجديد أن وجدتُه يجمع بين العقل والقلب . له عقل كبير يستوعب الدقيق من الأمر ، ويحيط به إحاطة شاملة لا يقف فيها عند التفصيلات ، بل يستخلص منها القواعد والأسس ، وهو فى هذا يختلف اختلافا واضحا عن كثير من زملائه ممن تثقفوا مثل ثقافته . وله قلب رقيق ، ينبض رحمة ويفيض حناناً ، يحس آلام الأشقياء فتنقلب آلاما لنفسه ، ويخفق لكل معنى كريم نبيل . وقليل من الناس من يجمع بين العقل والقلب . فكثير من العقول الكبيرة خاوية إلا من التفكير المجرد الفاتر الذى لا لون له ، وكثير من القلوب الرقيقة لا تعرف إلا التوجع المضنى وإلا العاطفة المائعة . بل إن اجتماع العقل والقلب هو الذى يخلق الرجل المجاهد . فالعقل يدل صاحبه على المبدأ السليم والعقيدة الحقة . والقلب يغرس فى نفسه هذه العقيدة غرسا قويا لا يمكن معه اقتلاعها . على أن صديقى الجديد لم يجتمع فيه العقل والقلب فحسب . بل رأيت فيه إلى جانب ذلك كثيراً من الترفع والإباء ، فهو لا يقبل المهانة ، ويأبى الظلم والضيم . وقديما قال الشاعر العربى :

متى تجمع القلبَ الذكى وصارماً　　وأنفاً حَمِيًّا تجتنبك المظالم

وكان صديقى يجمع العقل القوى ، والقلب الذكى ، والأنف الحمى . ولكن لم يكن فى يده صارم ، بل كان فى يده قلم . فلم تجتنبه المظالم ... ذلك أن الحضارة البشرية لم تصل بعدُ إلى مرحلة من الرقى تعدل فيها بين الصارم والقلم . على أن صديقى إذا فاته أن تجتنبه المظالم ، لم يفته أن يكون مجاهداً ، وهذه عناصر الجهاد كلها قد اجتمعت له . وأشهد أن صديقى عاش حياته كلها مجاهداً : جاهد فى

سبيل المبدأ ، وجاهد فى سبيل الوطن ، وجاهد فى سبيل العلم .

* * *

جاهد فى سبيل المبدأ

كان أحمد أمين رجلا ذا مبدأ لا يحيد عنه . ومن يكن له فى الحياة مثل أعلى لا يقبل الدنية ، ولا يعرف التقلب ، و يدرك معنى الوفاء ، و يجد اللذة فى الجهاد .

هذه الصفات مجتمعة لم ألبث أن رأيتها قد تجلت فيـه قبل أن تنتصف السنة الوحيدة التى قضيتها فى مدرسة القضاء الشرعى . وأسوق قصة من قصص جهاده فى سبيل المبدأ والوفاء .

كانت مصر ، فى أوائل سنة ١٩٢١ ، وفدية خالصة . وكان توفيق نسيم رئيسا للوزارة ينفذ سياسة القصر . فعزل عاطف بركات ناظر مدرسة القضاء الشرعى من منصبه إذ حسبه ، وحسب معه مدرسة القضاء الشرعى ، بؤرة تعشش فيها الوطنية ، هذه الوطنية التى لم يتلوث توفيق نسيم بأوساخها فيما روى عنه . فقامت مدرسة القضاء الشرعى ، أساتذة وطلبة ، يحتجون على هذا التعسف . ثم زادت المسألة تعقدا أن انقسم البلد إلى فريقين : أغلبية مع سعد وأقلية مع عدلى ، وذلك بعد سقوط وزارة توفيق نسيم . فتعذر إرجاع عاطف بركات إلى مدرسة القضاء ، إذ كان عدلى على رأس الوزارة ، وكان عاطف فى الأغلبية التى مع سعد .

فقمعت حركة مدرسة القضاء الشرعى فى قسوة عنيفة . وتناول القمع الطلبة والأساتذة جميعاً . وما لبثت حركة القمع أن آتت ثمارها . فهـدأ الطلبة ، وتفرق الأساتذة ، وانعزل كل فى عمله ، وعين الحـكومة ساهرة على الجميع . وانقسم الأساتذة إلى فريقين : فريق انصرف إلى عمـله لا يتكلم إلا همسا ومن وراء حجاب ، وهـذا هو الفريق الأكثر شجاعة والأقوى قلبا . وفريق آخر أخذ جانب الحـكومة ، وتنكر لعاطف بركات ، وانقلب حربا عليه وعلى شيعته .

فما راعنى فى وسط هذه الظلمة الظلماء ، والأعاصير العاصفة إلا أحمد أمين ، يبرز عن جميع الأساتذة ، ووقف ثابتا فى مكانه ، مواليا لأستاذه عاطف ، مجاهداً فى سبيل وفائه و إخلاصه لمبدئه . و يعلم الله ماذا حمل من أجل ذلك من عنت و إرهاق واضطهاد ، وهو لا يتحول ولا يتزعزع . ووقف إلى جانبه من الأساتذة اثنان أو ثلاثة ، أذكر منهم رجلا قوى الإيمان نبيل الخلق ، هو المرحوم الأستاذ عبد الوهاب خير الدين ، ولا أنسى له هذا الموقف طول حياتى .

وأمضينا بقية العام فى هم ونكد . و بقى أحمد أمين على جهاده ، لا تخور عزيمته ، ولا تهن قوته ، يحتسب فى سبيل الله وفى سبيل الجهاد والمبدأ ما يلاقى من ضغط ، وما يحيط به من عنف وقسوة . حتى إذا انقضى العام ، قيض الله لى الخلاص ، فأُرسلتُ فى بعثة للقانون إلى فرنسا . أما أحمد أمين ، فقد اقتلعته أعاصير الظلم من مدرسة القضاء التى نشأ فيها طالباً وعاش أستاذا ، وقذفت به إلى وظيفة قاض شرعى فى بلد ريفى !

* * *

وجاهد فى سبيل الوطن

دارت الأعوام ، وقضيت منها خمسة فى فرنسا ، قضيت بقضائها بعثتى فى القانون . ورجعت إلى مصر ، لأجد صديقى أحمد أمين لا يزال فى مكانه قاضيا شرعيا ، حيث كانت أعاصير السياسة قد قذفت به جزاء جهاده فى سبيل الحق والمبدأ ، وفى سبيل الكرامة والوفاء .

فعجبت أشد العجب . بل كان عجبى عجبين :

عجبت أولا من أن صديقى أحمد أمين إنما كان قد أقصى عن مدرسة القضاء الشرعى من أجل مبدئه ومن أجل وفائه لأستاذه عاطف بركات . وكنتُ أعلم

إلى جانب ذلك أنه كان معروفا بحبه للوفد مشبعا بمبادئه ، أثيراً عند زعيمه سعد زغلول . وأنه أدى كثيراً من الخدمات إلى الوفد وزعيمه ، بل إن الزعيم كان يستنير برأيه عن الحالة فى مصر ، وعما عسى أن يكون استقبال الزعيم فيها إذا قدم إليها من فرنسا بعد الانتهاء من مفاوضة لجنة ملنر . كنتُ أعلم كل ذلك ، وأعلم كثيراً مثله ، مما يجعل أحمد أمين فى مقدمة الطبقة المثقفة الوفدية ، المخلصة لمبدئها ، المتفانية فى جهادها من أجل الوطن . وهـذه الأعوام الخمسة التى مرت قد سجلت أحداثا جساما . فهذا الأستاذ عاطف بركات قد رجع ، ولـكن لا إلى مدرسة القضاء الشرعى ، بل إلى وكالة وزارة المعارف ، وهى وظيفة تعد أجل شأنا وأكبر خطراً من وظيفة ناظر مدرسة القضاء الشرعى . وهـذا الوفد قد ولى الحـكم مرتين ، فراحت وجوه قديمة ، وجاءت وجوه جديدة ، وولى الوظائف كبيرها وصغيرها من عرف بالوفدية ممن كانوا موظفين أو من غيرهم . ولما رجعتُ إلى مصر ، وجدت على رأس الوزارة عدلى يكن ، وعلى رأس مجلس النواب سعد زغلول . أما صديقى أحمد أمين ، فـكان لا بد من البحث عنه طويلا ، حتى إذا ما عثرتُ عليـه ، وجدتُه مغموراً فى ركن مهجور من وظائف القضاة الشرعيين ، حيث كان منذ خمسة من الأعوام . لقد رجع أستاذه وصديقه الحميم عاطف بركات إلى مناصب الحـكومة الـكبرى ، وولى وكالة وزارة المعارف ، وكان يستطيع فى القليل أن يعوض على الرجل بعض ما عانى فى سبيل وفائه له وفى سبيل الجهاد عن المبدأ والـكرامة ، ولـكنه لم يفعل شيئاً ! ولى الوفد الحـكم مرتين ، وفى كل مرة كان يستطيع أن يجزى أحمد أمين خير الجزاء ، إن لم يكن من أجل إخلاصه لوطنه ، وجهاده فى سبيله ، وصبره على المـكاره والتضحية ، فعلى الأقل من أجل وفديته الخالصة من الدغل ، البريئة عن المصانعة والمداجاة . ولـكن الوفد لم يفعل شيئاً ! عجبت أشد العجب لذلك . وكنتُ وقتئذ من أشد المصريين إخلاصا لمبادئ الوفد ، ومن أعمقهم إيمانا

برسالته . فلم ينل ذلك من إخلاصى للوفد ، ولـكنه أشاع فى نفسى قلقا غامضا وحيرة مكتومة . ثم ما لبث عجبى هذا الأول أن زال بعجب أشد منه .

عجبت ثانياً من صديقى أحمد أمين نفسه . قابلنى بعد عودتى من فرنسا متهللا باشًّا ، يحدثنى عما تعاقب على مصر من أحداث فى غيبتى ، وعما خطت مصر فى جهادها المقدس من مراحل ، وهو مبتهج راض بما تم ، آمل المزيد فى المستقبل ، وكأنه يروى تاريخاً مجرداً ليس له شأن فيه ، ولا لشخصه دخل فى حوادثه . لم يذكر لى إلا لماما — وهو يستطرد — ما جاهد وما قاسى فى سبيل إخلاصه لوطنه ، ولا يتحدث عن ذلك إلا إذا اضطر إليه اضطراراً لصلة ضرورية تصل بين حادثين أو تعلل أمراً لا بد من تعليله . فتفرست فى أعماق نفسه ، فوجدته مطمئناً هادئاً لا يتكلف ولا يتصنع . ليس فى نفسه مرارة ، ولا ترتسم على وجهه أمارات الأمل الضائع ، بل هو قانع بنصيبه كل القناعة ، مغتبط لما يحسب أن مصر قد اجتازته من عقبات وقطعته من مراحل فى سبيل استكمال استقلالها .

لقد كان عجبى الثانى هذا شديدا عميقا نسيت معه عجبى الأول . فلم أعد أفكر فى تصرفات الوفد ، ولم يعد يعنينى ما إذا كان صديقى قد جوزى على جهاده وتضحيته . وإنما عنانى أشد ما عنانى أن أحلل فى صديقى هذه النفس الراضية المرضية التى قال الله تعالى فى وصفها : « يأيتها النفس المطمئنة ، ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى ، وادخلى جنتى » .

وسألت صديقى — وأنا فى سبيل تحليل نفسه — عما إذا كان لم يشعر من الوفد بشىء من الجحود أن تركه منزوياً فى وظيفة قاض شرعى ، دون أن يعيده على الأقل إلى وظيفته الأولى التى اقتلع منها وهو يجاهد فى سبيل الحق ، والمبدأ ، والكرامة ؟ فأجابنى فى غير تردد أنه لا يرى رأيى ، وأنه يعتقد أنه لو أراد أية وظيفة وطلبها من الوفد لم يكن ليبخل عليه بها ، ولـكنه لم يطلب شيئاً ، وما كان

ليطلب شيئاً ، لأنه إنما فعل ما فعل ، لا ابتغاء وظيفة أو جاه أو مال ، ولـكن إخلاصاً للمبدأ ، وجهاداً فى سبيل الحق ، وأنه لينتقص من جهاده أن يسأل الجزاء عليه . و بحسبه أنه أدى بعض الخدمات لوطنه ، و إنه لقرير العين بما أدى ، ولا يريد على ذلك جزاء ولا شكورا .

تأثرت أعمق التأثر من هـذه الإجابة . ورجعت إلى ما كنت قبل سفرى أحلل به صديقى ، وأعلم أنه يمتاز به عن غيره : هذا العقل القوى ، وهـذا القلب الذكى ، وهذا الأنف الحمى . هذه العناصر الثلاثة التى تأتلف لتخلق الرجل المجاهد . لقد كان رجلا مجاهداً حقاً فى سبيل مبدئه ، وفى سبيل وطنه ، وجهاده جهاد صامت لا يجنح إلى الضجة ، ولا يميل إلى الدعاية ، ولا ينتظر المـكافأة ، ولا يتطلع إلى الجزاء .

لم أكن أعلم إذ ذاك — وكنتُ وفدياً مؤمناً أعمق الإيمـان بوفديتى — أن صديقى ليس من الطراز الذى تنفق سوقه فى ميادين الدعاية ، ولا من الرجال الذين تلتهب لهم أكف الجماهير بالتصفيق . لقد كان صديقى رجلا مجاهدا ذا مبدأ لا يتقلب فيه . وهذه صفة تبعده عن الجماهير ، ولا تدنيه من رجال النفوذ والحـكم فالجماهير لا تحب إلا الضوضاء والضجيج ، ولا يبهر نظرها إلا اللمعان والبريق . ورجال النفوذ والحـكم يحبون الملق ، فيجوز عليهم الرياء والنفاق ، ثم هم أيضاً قد وصلوا إلى مناصب الحـكم بالضوضاء والضجيج ، فيؤثرون أن يستبقوا بضوضائهم وضجيجهم مناصب الحـكم التى وصلوا إليها . وصاحبى لا يحب الضوضاء والضجيج ، ويكره الرياء والنفاق ، ويمقت التلون والتقلب . فمن أين له السبيل إلى رجال النفوذ والحـكم ، ودون ذلك بحر مرغ مزبد من الضوضاء والضجيج ، حول رجراج من التلون والتقلب ، كدر رنق من الرياء والنفاق !

لم يكن لصديقى إذن إلا أن يقنع بمكانه الذى هو فيه . ولا أحسب أن مرد

قناعته كان إلى المعانى التى ذكرتها ، بل كان مردها إلى هذه النفس الطاهرة الزكية ، التى خلقت مجاهدة دون أن تنتظر على الجهاد أجراً .

* * *

جاهد فى سبيل العلم

على أن صديقى لم يلبث أن أحس ضيق الأفق الذى يتنفس فيه . لقد كان يدرك من وقت طويل أنه لم يخلق ليكون قاضياً شرعياً ، ينظر فى قضايا الزواج والطلاق والنفقة والمواريث ، وإن كان قد استوعب ما لهذه الأقضية من نواح اجتماعية استيعاباً عميقاً هو الذى استبقاه فى وظيفته طول هذه المدة . لقد كان يحب العلم منذ دخل مدرسة القضاء الشرعى طالباً ، وتخرج فيها أستاذاً . وكان يعمل الليل والنهار على تثقيف نفسه بنفسه . لقد وجد أمامه خزائن الفكر الإسلامى مكدسة تعيي من يحاول الإحاطة بها . فهجم على هذه الخزائن ، مستعيناً فى ذلك بوسيلتين . ثقافة إسلامية عريقة تأصلت فى نفسه منذ الصغر ، وعقل نافذ مرتب يغوص فى الأعماق فلا يسلط أضواءه على الفكرة حتى يستخلص لبابها ويطرح عنها القشور التى تستر منها الجوهر . وأدرك قبل فوات الأوان ألاّ بد له من تحصيل لغة أجنبية يطل منها على الحضارة العالمية التى يعيش فيها ، حتى يدرك الصلة بين القديم والحديث . فما لبث أن تعلم اللغة الإنجليزية ، بحيث استطاع من طريقها أن يلم بما وصلت إليه حضارة الغرب ، وبخاصة ما وصل إليه المستشرقون فى دراساتهم للفكر الإسلامى .

بينما هو يعد نفسه للرسالة التى كتب الله له أن يؤديها فى هذه الحياة ، أحسست منه قلقاً يشوبه شىء من الضجر . وعلمت منه أنه يتطلع إلى وظيفة هى الغاية فى أمانيه . لم تكن هذه الوظيفة — كما قد يخال كثير من الناس — منصباً كبيراً من مناصب الدولة ، مما وصل إليه من هم دونه علماً وخلقاً وصلة بذوى النفوذ

والحكم ، بل هى لم تكن إلا وظيفة مدرس للشريعة الإسلامية فى كلية الحقوق . هى وظيفة صغيرة دون شك من حيث المال والجاه والنفوذ ، ولكنها كبيرة من حيث ما تهيىء له من جو علمى خالص يستطيع فيه أن يخدم الفقه الإسلامى الخدمة التى طال انتظاره لها . وكنت دائماً أومن أعمق الإيمان أن هذا الفقه الإسلامى فى حاجة ملحة إلى عقل قوى يعيد له سيرته الأولى ، وينتشله مما أحاط به من الجمود ، ويساير به الزمن ، بعد أن ينفض عنه ما تراكم عليه من غبار الدهور المتعاقبة . ولم أكن أشك فى أن الفقه الإسلامى سيجد فى صديقى هذا العقل القوى الذى يقيل عثرته ، ويجدد نهضته . فاغتبطت جد الاغتباط إذ أنست من صديقى هذا الميل . وحسبت أن الأمر ميسر . فقد كنت إذا ذاك منخرطاً فى سلك هيئة التدريس بكلية الحقوق أقوم بتدريس القانون المدنى . بل كان أمامنا سبب يهيىء سبيل النجاح أهم من ذلك بكثير . فقد كان عميد الكلية فى ذلك الوقت هو المغفور له أحمد أمين ، سَمِىُّ صديقى ، وصديقه الحميم . فقد كانت هناك صلة صداقة متينة توثقت بينهما منذ كان العميد أحمد أمين أستاذاً للقانون فى مدرسة القضاء الشرعى ، وهى الوظيفة التى توليتها فيما بعد على ما قدمت ، والتى عرفت صديقى عن طريقها ، كما عرفه العميد أحمد أمين . ولكن بالرغم من كل هذه الظروف المواتية التى كان من شأنها أن تنيل صديقى الكبير هذه الوظيفة الصغيرة بكلية الحقوق ، لم يتمكن ، ويعاونه صديقان من أخلص أصدقائه أحدهما عميد الكلية نفسه ، من أن يحقق أمنيته .

رب ضارة نافعة . لقد كنت أحسب إذ ذاك أن ما أخطأ صديقى من التوفيق خسارة كبيرة على العلم . ولم أكن أدرك عندئذ أنه ليس إلا خسارة على الفقه الإسلامى وحده . أما على العلم بمعناه الواسع ، وعلى الفكر الإسلامى فى عمومه وشموله ، فليست هناك أية خسارة ، بل هناك كسب محقق . ذلك أن زميلا آخر كان يهيىء لصديقى مكانه فى كلية الآداب ، ذلك المكان الذى دخل إليه ، ولم

يغادره طول حياته . لقد كانت الأقدار أبعد نظراً وأنفذ بصيرة . أراد لنفسه دائرة محدودة ، وأراد الله له دائرة أوسع . بل إنى لأتساءل الآن أليس هذا العمل الفكرى الجليل الذى تولاه صديقى فى كلية الآداب أقرب إلى مزاجه العلمى ، وأدنى إلى ثقافته المكسوبة من الفقه الإسلامى فى كلية الحقوق ؟

ومهما يكن من أمر ، فإن صديقى لم يدخل مدرساً للشريعة الإسلامية فى كلية الحقوق ، ولكنه دخل مدرساً للأدب العربى فى كلية الآداب ، وكانت هذه هى الخطوة الأولى فى حياته الجديدة .

وهذه الحياة الجديدة كرّس نفسه فيها للعلم ، وللعلم وحده . لقد عافت نفسه السياسة وما يملأ سطحها من سعايات ودسائس ، وما يحيط بها من دنية وصغار ، وما تضطرب به من نفاق وملق . بل هو لم يعرف هذا اللون من السياسة قط ، ولم يك ليصلح له لو أنه عرفه . لقد كان لا يفرق بين السياسة والوطنية ، فالسياسة عنده هى أن يخدم وطنه . ولذلك عمل فى السياسة عندما كانت وطنيه خالصة تصهر القلوب ، وتنقى الضمائر والنفوس ، وأقبل عليها أشد ما يقبل ، لا ينتظر جزاءً ولا مكافأة . فلما تطورت الأمور ، وانحرفت النفوس ، وأصبحت السياسة أن تنتمى إلى حزب لتهتف له أصاب أو أخطأ ، وتصفق لزعيمه هدى أو ضل ، لا بل أن تنتمى اليوم إلى حزب وقد ولى الحكم لتتركه غداً إلى حزب آخر وقد خلف فى الحكم الحزب الأول ، لما أصبحت السياسة هى الوصولية والنفعية على هذا النحو ، كان لا بد لصاحبى أن يهجرها ، فلم تخلق له ولم يخلق لها . وانصرف إلى العلم كما تمليه عليه سجيته التى فطره الله عليها .

وإنى لأتساءل هنا ، مرة أخرى ، لو كانت السياسة وطأت أكنافها ورحبت مسالكها لصاحبى ، لو كانت هذه السياسة بقيت وطنية خالصة كما كانت ، وبقى صاحبى خائضا غمارها ، فأية خسارة فادحة إذن كان يخسرها العلم والفكر الإسلامى

وقد عجزا عن أن يجذباه إلى جانبهما ونجحت السياسة فى أن تصرفه عنهما ! إن الله لأكرم على العلم والإسلام من أن يقدر ذلك ، فحمداً له وشكرا .

انصرف إذن صاحبى فى كلية الآداب إلى العلم يجاهد فى سبيله . ومنذ رفعت يده راية العلم لم تهبط بها ، ومنذ اشتعلت فى صدره جذوة المعرفة لم تنطفىء هذه الجذوة . وقد خدم بالعلم مصر وطنه الأصغر ، والإسلام وطنه الأكبر .

وأما ما اختاره لجهاده العلمى فقد حدثنى أنه وزميلين وضعوا الخطوط الرئيسية لمشروع ضخم كبير . يؤرخ أحدهم للإسلام حياته الأدبية ، و يؤرخ الثانى للإسلام حياته السياسية و يؤرخ صديقى للإسلام حياته العقلية .

فاضطلع صديقى بنصيبه من هذا المشروع : سلسلة من الكتب هى من أقوم وأروع ما وضع عن الحياة العقلية والفكرية للإسلام منذ فجره إلى أن اشتد عوده واكتهل . فأسس صديقى مدرسة فى الفكر الإسلامى لا أعرف أن معاصرا قام بعمل يدانيها . وستبقى هذه المدرسة راسخة الأصل باذخة الفروع ، تظل الجيل بعد الجيل وسيكثر تلاميذها ، وسيتخذ هؤلاء التلاميذ من صديقى لمدرستهم أستاذا إماما وزعيما فكريا كبيرا .

رحمه الله رحمة واسعة . لقد جاهد جهادا قويا عنيفا فى سبيل المبدأ ، وفى سبيل الوطن ، وفى سبيل العلم . وقاسى فى جهاده هذا القوى العنيف ألم الجسد وألم الجحود والنكران ، فى دولة لا تزال مشغولة عن العلم وعن تكريم العلماء . و بقى يجاهد إلى آخر لحظة من حياته ، فسقط فى الميدان صريعا ولم يسقط من يده القلم .

ذكريات عن أحمد أمين

بقلم الدكتور

عبد الوهاب عزام

هى ذكريات لا يؤلف بينها موضوع ، ولا يجمعها زمان ولا مكان ؛ ولكن تنظمها كلها الصحبة الطويلة ، والصلة الروحية ، بينى و بين الأستاذ المفتقد أحمد أمين رحمه الله :

دخلت مدرسة القضاء الشرعى فى السنة الأولى من القسم الأول والأستاذ رحمة الله عليه فى السنة الآخرة من القسم العالى . وكانت مدة الدراسة فى القسمين تسع سنوات ، وكان هو من الفريق الذى التحق بالقسم العالى مباشرة قبل أن يعدَّ القسم الأول الطلبة لذلك القسم .

ولا أزال أذكر صورته ، ولعلها أول صورة وعيتها ، وهو خارج من المدرسة فى نفر من أصحابه . قال أحد رفقائى : هذا أول المدرسة وجُبّته ممزوقة ، وكان أحد أصحاب الأستاذ مزح معه ذلك اليوم فجذبه فانمزق كمه .

وتخرج الأستاذ تلك السنة وتولى القضاء . ثم رجع إلى المدرسة مدرّسا . ولا أتذكر متى كان هذا .

وحينما كنت من طلبة القسم العالى درس لنا الأستاذ علم الأخلاق أو فلسفة الأخلاق . وكان تلقاه عن أستاذه محمد عاطف بركات ناظر المدرسة رحمه الله . ثم تولى درس هذا العلم لنا الأستاذ محمد عاطف نفسه . وكان أحمد الأمين حريصا على متابعة التلقى عن أستاذه فكان يوضع له كرسىّ فيستمع إلى درس الأخلاق

معنا . وكان موضوع الدرس حينئذ رسالة فى مذهب المنفعة للفيلسوف الإنكليزى استوارت ميل .

وجاء فى مقدمة هذه الرسالة كلام عن الأخلاق « منذ جلس الشاب سقراط يتلقى العلم عن الشيخ فيثاغورس » فأولع الطلبة منذ قرءوا هـذه الجملة أن يلقبوا أحمد الأمين « الشاب سقراط » .

ودرس لنا الأستاذ كذلك فى إحدى السنين تاريخ الأندلس . ولم يكن أستاذ تاريخ ولـكن محمد عاطف — وكان ينظر إلى كفاية المدرس ولا يتقيد بالقيود المألوفة فى المدارس — عهد إليه بهـذا الدرس . فأحسن البيان والتلخيص وكتب خلاصة شاعت فى المدرسة إذ ذاك .

* * *

ثم أعيد أحمد الأمين إلى القضاء فاحتفلت المدرسة بتوديعه . وكنت تخرجت فيها ولحقت بها مدرسا . فألقيت كلمة مجملة ذكرت فيها طرفا مما عرفت من أحواله وسيرته وكانت ذكريات كالتى أكتبها اليوم ، وأذكر كذلك أنى حينما أنهيت دراسة هذه الـكلية التى كانت تسمى مدرسة القضاء الشرعى ، واختارنى الناظر للتدريس فيها عهد إلى الأستاذ رحمه الله ليخبرنى بهذا الاختيار ويسألنى عن العلوم التى أرغب فى تدريسها ، فأبرق إلىّ وأنا فى قريتى فجئت إلى القاهرة ولقيته فحدثنى فى هذا الشأن .

* * *

وتركت المدرسة بعد ثلاث سنين من تدريسى فيها ، وسافرت إلى لندن حتى أنشئت الجامعة : جامعة القاهرة ، وكانت نواتُها كلية الآداب القديمة التى تخرجت فيها وأنا مدرس بمدرسة القضاء ، فنقلت من مفوضية لندن إلى الجامعة وبها أساتذتى وأصدقائى طه حسين وأحمد الأمين وعبد الحميد العبادى ، فتعاوننّا فيها على وضع

السنن الصالحة للدراسة الجامعية ولا سيما دراسة اللغة العربية وآدابها . وطالت صحبتنا وتعاوننا مخلصين متآخين زهاء عشرين سنة .

ولا أعرف جماعة ألف بينها التعلم والتعليم ، ووكّد صداقتها وأخذتها الصحبة فى العلم كجماعتنا ، وأقصر حديثى على الأستاذ الفقيد أحمد الأمين :

لا أذكر أنى خاصمت الأستاذ أو نازعته أو نافرته ساعة واحدة فى هذه السنين الطويلة على اختلافنا فى الآراء أحياناً ، واختلافنا فى الطرائق والأساليب والنزعات أحيانا .

ومما يحضرنى الآن أنه كتب مقالات عن الأدب الجاهلى فى مجلة الرسالة فخالفته بمقالات فى المجلة نفسها . وقلت فى نفسى — ولعلى قلت له أيضاً — سأجعل هذه المقالات مثلا للجدال الخالص من الشوائب ، الذى لا يقصد إلا الحق ولا يبخس المخالف حقّه ، ولا يحيد قِيدَ شعرة عن أدب المناظرة .

ولما طبع كتابه فجر الإسلام ، كنت معه فى لجنة التأليف فأرسلت المطبعة نسخاً من الكتاب ، فحرصت على أن تظفر يدى بأول نسخة . ولما أراد إعادة طبعه سألنى أن أقرأه وأبين رأيي فيما آخذه عليه . ففعلت ؛ فذكر هذا فى مقدمة الطبعة الثانية .

ولما أراد أن يضع هو والأستاذ زكى نجيب محمود كتاب قصة الأدب ، سألنى فكتبت فصولا عن الأدب الفارسى .

كذلك كان يأنس بى ويركن إلىّ ، وكذلك كنت أستشيره وأستهديه فيما يعرض لى . كما اشتركنا فى وضع بعض الكتب المدرسية .

* * *

ولما احتفل أصدقاء الأستاذ وأحباؤه بتكريمه والاعتراف بفضله فيما أخرج من كتب ، تكلمت فى الحفلة فحاولت أن أذكر ما بينى وبينه ، وأن أوفيه حقه فى

عشر دقائق قُسمت لكل متكلم . فيسَّر لى حبه والوفاء له أن أجمل سيرته الكريمة فى دقائق عشر . ونالت الكلمة إعجاب الإخوان حاضرى الحفل .

***

وكنت حريصاً على لقاء الأستاذ فى الجامعة كلما أمكنت الفرصة . وكان من فرص اللقاء عشر دقائق بين محاضرتين أذهب فيها إلى مكتبه فنتحدث ما وسعت هذه الدقائق . وأذكر أن الأستاذ الإنكليزى آربرى كان يشاركنا أحياناً فى هذه الفرصة القصيرة فى كل أسبوع . فسمّى هذه الاجتماع « مجمع الدقائق » وهى تسمية بليغة وتورية طريفة .

***

وأتيح لى أن أسافر مع الأستاذ أسفاراً ندبتنا لها الجامعة . والسفر كما يقول العرب ، ميزان السَفْر (أى المسافرين) .

سافرنا فى أول بعثة من الجامعة إلى البلاد العربية ، زرنا سنة ١٩٣٠ فلسطين وسوريا وسنة ١٩٣١ العراق . وكان الأستاذ رئيس السَفرتَين .

وكان لنا فى السفرة الأولى فكاهات . منها أنى والصديق الأستاذ العبادى نظمنا أبياتاً نصف فيها الأستاذ وأحد الأصحاب . وسمينا الأبيات « القصيدة المكتَّمة » . ولما بلغنا حلب أخبرناه بها ، ولم نطلعه عليها ، فقال ضاحكا : سأشرحها قبل أن أسمعها .

وكانت المكتمة حديثاً فكها بيننا . ولم نُعلنه بها إلا فى سفرنا إلى العراق السنة التالية .

والقصة فى كتاب الرحلات الأولى ، ولكن الأبيات لم تنشر . وهى أبيات لا لغو فيها ؛ أولها :



فى الحجاز مع الدكتور عبد الوهاب عزام



رئيســـــنا المهذب والرجـــل المؤدب
له محيّا ضاحـــك واللفظ منه أعـــذب
وعــدله فى صحبـــه كالسيف حين يضرب

إلى آخر وصفنا إياه هو وأحد أصحابنا ، وكنا سمينا الأستاذ فى هــذه السفرة « الشيخ الرئيس » .

وسنة ١٣٥٦ هـ (١٩٣٨ م) حججنا معاً فى أول بعثة للحج من أساتذة الجامعة وطلابها . واختلف رأينا وتصرفنا فيما لقينا من مشقات هناك ، ولم يختلف بيننا قلب أو لسان . واقترح علىّ رحمه الله أن نكتب معاً رسالة نسميها « الحج بعد عشر سنين » نصوّر فيها ما نؤمله للحج وللحجاج . ولم تتح كتابة الرسالة ولـكنى كتبت مقالات وأذعت أحاديث فى هذا المعنى .

وفى السنة نفسها سافرنا معاً إلى مؤتمر المستشرقين فى بروكسل . اصطحبنا فى السفر والإقامة منذ فارقنا القاهرة إلى أن عدنا إليها .

وكان الأستاذ يقول بين الحين والحين : أرانا اتفقنا ولم نتنازع فى شىء ، فأقول مازحاً : الفضل لى .

سافرنا إلى جنوه فميلاند فلدسون فى سويسرة فبركسل . وكان موضوع مقاله فى المؤتمر « أبا حيان التوحيدى » وكان موضوع بحثى «السلطان الغورى ومؤلفات مخطوطة كتبت له » .

وعدنا إلى باريس فمرسيليا . وكانت نذر الحرب تروع الناس فعجّلنا العودة إلى مصر .

وكان لنا فى هذه السفرة أحاديث بين الجد والفكاهة منها قصة حلاق بركسل ولا يمنعنى جـلال ذكرى الأستاذ من تسجيل الفكاهات ، فإن لها من ذكراه جلالا كذلك : رأيت الأستاذ يوماً جالساً فى آخر صفوف المؤتمر وقبعته على رأسه .

فلما جلست إليه قال : أصابنى اليوم ما أصابنى من حلاق سألته أن يقصر شعرى فأحفاه كما ترى والهواء بارد فلا أستطيع أن أحسر عن رأسى .

فذهبت بالخبر إلى الدكتور طه حسين ، وكان فى المؤتمر ، فصار حديث فكاهة بين الحين والحين ، وسارعت أنظم أرجوزة تتضمن هذه القصة أولها :

قص علينا أحمد الأمـــين وهـــو لعمرى كاسمـــه أمين

ومنها :

قد أم فى بركسل حـــلاَّقا لاقاه من غَبـــائه ما لاقى

ومنها :

أشار للحـــلاق : قصِّر شعرى ولغـــة الحلاق ليس يدرى
ولم يك الحـــلاق باللبيب فما درى إشارة الأديب
فأعمـــل الموسى ولم يبال بما يصيب الرأس من وبال
ونظر الأستاذ فى المـــرآة فأبصر الفروَةَ كالصَّـــفاة
وراح بالـكف يمسّ الراسا كأنمـــــا مسّت يداه طاسا
فصاح بالحـــلاق : ماذا ماذا ؟
فقال كُمَّن (Comment) أنت قلت هذا ؟

وقلت فى الأرجوزة إن الأستاذ تعزّى بالعلماء وقال إنهم يقصّرون شعرهم بل كثير منهم أصلع لا شعر له وأنه عدّ بعض العلماء إلى أن قال :

وأحسب الشيخ أبا حيّـانا قد كان فى صلعتـــه أخانا

وكان بحث الأستاذ عن أبى حيان التوحيدى كما تقدم .

* * *

وكان لنا من بعـد اشتراك فى مهرجان المعرى فى الشام وفى المؤتمر الثقافى

العربى فى لبنان ومؤتمر الآثار العربية فى دمشق . وكنا فى هذين المؤتمرين نمثل اللجنة الثقافية فى جامعة الدول العربية . وكنا ندبنا مستشارين فيها . ثم تركتها من بعد فتولى هو رياستها .

وكانت صحبتنا فى هذه الأسفار والمؤتمرات كصحبتنا فى غيرها ، مودة وأخوة . احفظ له حرمة السن والأستاذية ، ويحفظ لى حرمه الصحبة والزمالة والصداقة . ويضيق المقام عن التفصيل . وليته يتسع .

* * *

وكان رحمه الله أول ما رشح لعمادة كلية الآداب حاز ثمانية أصوات ، ثم حاز أكثر الأصوات المرة الثانية فاختير عميدا . ثم استقال قبل انتهاء مدة العمادة بشهرين أو ثلاثة .

ونلت من بعد فى أول ما ترشيح للعمادة ثمانية أصوات ثم نلت الكثرة فى المرة الثانية فانتخبت .

وتذاكرنا هذا يوما فتعجب من الاتفاق . فقلت أن اطرد القياس فسأستقيل قبل انتهاء مدة عمادتى فضحك . وقد تركت الكلية قبل انتهاء عمادتى بشهرين أو ثلاثة أيضا . فانظر إلى عجائب الاتفاق .

* * *

وذِكْرَى أخرى كثيرة يسهل على القلم أن يعددها . وهى كلها صغيرة فى ظاهرها كبيرة فى معناها تبدو فى صورة صغيرة من الجد أو المزاح ، ولكنها كلها ذات دلالة على صحبة خالصة فى سبيل العلم و إخوة وفية على مر الزمان ، وتقلب الحوادث .

و يسير عليّ أن أ كتب فى الجوانب المجيدة العظيمة من سيرة الأستاذ رحمه الله ولـكن هذه الجوانب معروفة أستطيع أنا وغيرى أن نـكتب فيها وسنكتب ، وهذه الحادثات الصغيرة والفـكاهات العابرة لا يعرفها غيرى وأنا أضن بها على النسيان ، و إنها عندى لعزيزة بذكرى الصديق العزيز .

رحم الله أحمد الأمين رحمة واسعة .

أحمد أمين ... ناشر الثقافة

بقــلم الأستاذ

محمد عبد الواحد خلاف

كان أصدقاء الفقيد العظيم « أحمد أمين » إبان الفجيعة فيه فى شغل عن التحدث عنه بما يحسونه من لوعة لفراقه وما يغمرهم من الحزن لفقده . وقد مضى عام على وفاته « ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر » .

وكانوا لطول صحبتهم إياه وقربهم منه ، واتصال حياته بحياتهم واشتراك جهوده مع جهودهم ، لا يكادون يفكرون فيه مستقلا عنهم ، ولا يقفون موقف الفاحص الذى لا يكون صورة صميمة واضحة حتى يبعد . فها هو ذا قد أفرده الموت وباعد بينه و بينهم القبر .

فليس على أحد اليوم من حرج فى أن يدرس أحمد أمين و يحلل شخصيته و يعرض جهوده وأعماله ، بل لعل ذلك واجب يقتضيه تاريخ العصر الحديث وقادة الفكر فيه ، وما من شك فى أن أحمد أمين كان علما من أعلام الفكر ورائدا من رواد الإصلاح فى ميادين كثيرة .

ولا يعنينى فى هذه العجالة إلا ناحية واحدة طُلب إلى أن أعرضها عرضا مجملا هى جهوده فى نشر الثقافة .

كان أول ما هيأ الفقيد به نفسه لحمل رسالة نشر الثقافة أن بدأ بنفسه فتولاها بتثقيف ذاتى واسع يكمل ما درسه ، و يوسع دائرة تفكيره ، وكانت هذه العملية — عملية التثقيف الذاتى — عملية متصلة لم تنقطع إلى أن اختاره الله لجواره . فكان دائبا على القراءة والدرس والرجوع إلى المختصين فيما غمض عليه ، وكان يعمل

فى ذلك بلا كلل ، وكانت ثمرة هذا الجهد المتصل إحاطة واسعة بالتراث العربى القديم ومعرفة دقيقة لأمهات الكتب فيه ، و إلماما بمشاهير المؤلفين وما ألفوا فيه ، وخصائص كل منهم ، ولم يحصر قراءته فى ناحية خاصة أو قصرها على علم بذاته ، بل قرأ عيون المؤلفات فى كل علم وفن .

وقد أدرك منذ فجر الشباب أن اكتفاءه بالثقافة العربية يحرمه الاتصال المباشر بمصادر المعرفة الحديثة فعكف على دراسة اللغة الانجليزية و بلغ فيها مبلغا يمكنه من فهم ما يقرأ و إن كان لم يحسن التحدث بها ، وبهذا أقبل بنهم على قراءة ما كتبه المستشرقون ، كما درس كثيرا من المراجع الأساسية فى الفلسفة والأخلاق والمنطق والأدب .

ولم تكن قراءته للتراث العربى أو لعيون الإنتاج الغربى قراءة سطحية يروح بها النفس ويزجى الفراغ ، بل كانت قراءة درس وفحص ونقد فلا يقرأ لكاتب حتى يتفاعل معه تفاعلا قويا يمحص الفكرة و يصهرها ، و يتمثلها فى ذهنه صورة واضحة دقيقة ، يرضاها أو ينقدها ، وتصبح إضافة إلى ذخيرته الفكرية يرجع إليها فى يسر كلما دعت إليها حاجة .

ولم تكن القراءة هى المصدر الوحيد لتفكيره ، فقد كان فى كل ما يقع تحت حسه من مشاهد ، ومايمر به من حوادث ، مادة حية لتفكيره النشط الفعال يتناولها بالوصف الدقيق والنقد الممحص ، و يخلص منها برأى جديد أوفكرة نافعة ، وكانت اتصالاته بالرجال فى حياته العامة الخاصة ورحلاته داخل مصر وخارجها كذلك من السبل التى أمدته بفيض من الملاحظات الدقيقة .

بهذه الذخيرة الغنية بالمعلومات والمعارف ، وبما حباه الله به من تفكير منطقى دقيق ومن مقدرة على النفاذ إلى لباب الفكرة فى كل موضوع يقرؤه أو يسمعه ، دخل الفقيد ميدان نشر الثقافة .

وقد كان دخوله هذا الميدان استجابة لغريزة قوية فيه ، فقد كان كل تفكير وصل إليه فى أمر من الأمور يتمرد على الحبس فى رأسه ، و يضيق بالبقاء مكنونا فى صدره و ينزع إلى الانطلاق حيث يسمع و يحس فكان بحاجة إلى منبر عام يختلف إليه من آن لآن ، و يعرض فيه ما وصل إليه من البحث والدرس . ولعل هذا هو السر فى اتجاه الفقيد إلى مهنة التعليم ، وفى أنه كلما انحرف عنها إلى غيرها من المهن عاد سريعاً إليها ، فالتعليم مجاله لنشر ما وعيه من دراسات وآراء .

على أنه كان لا يرضى بالدائرة الضيقة التى يتيحها له التعليم وحدها ، فهو يريد أن يعرض آراءه ودراساته على الناس كافة ، غير مقيد بمادة معينة ، ولا بموضوع بذاته ، و بهذا اتجه إلى الصحافة و إلى نشر الكتب .

ومن الإنصاف للفقيد أن نقرر أنه لم يتجه إلى النشر انسياقا وراء غريزة التعبير وحدها ، فقد كانت للفقيد مثل عليا يرغب فى تحقيقها ، وكانت دراساته كلها متجهة إلى إفادة الناس فيما يصلح حالهم وينهض بمستواهم .

بدأ جهده الصحافى بالكتابة فى مجلة السفور مع فريق من إخوانه .

و بدأ جهده فى التأليف بكتيب فى الأخلاق ومبادئ الفلسفة .

على أنه كان قد أحس مع رفاقه من البداية ، أن التأليف والإنتاج الثقافى سيصيران العمل الأساسى لهم فى الحياة ، ففكروا من أكثر من أربعين عاما فى تأسيس هيئة لنشر الثقافة فأسسوا لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وقد ظل الفقيد طول حياته رئيساً لهذه اللجنة ومشرفا على سياستها الإنتاجية .

وكأنما كان الفقيد يحس أنه بحكم رياسته لا يكفى أن يضطلع بأعبائها المالية والإدارية وحدها ، بل بأكبر أعبائها الفنية كذلك ، فكان إنتاجه فى اللجنة أكبر إنتاج ، وكتب له التوفيق فى كتبه ، فصارت من المراجع التى لا يستغنى عنها عالم أو أديب .

وتنبه الفقيد وزملاؤه فى اللجنة إلى ضرورة وجود مجلة تصدر باسمهم دوريا فأنشأوا مجلة الرسالة ، ثم أنشأوا بعدها مجلة الثقافة ، ولقد كانت المجلتان تحملان رسالة الأدب والتفكير الحديث حقبة طويلة من الزمن ، وكان للفقيد مقال فى إحداهما كل أسبوع . ثم نشأت ظروف اقتضت احتجابهما ، فكان الأسف لذلك عاما .

ولعل أكبر أثر خالد للفقيد هو سلسلة كتب فجر الإسلام ، وضحى الإسلام ، وظهر الإسلام ، ففيها أخرج الفقيد من ذخيرته الغنية من الاطلاع الواسع المدروس المنظم ، تاريخاً جامعاً دقيقاً للتفكير الإسلامى فى عصوره المختلفة ، يجلو ماغمض من نواحيه ويحلل أسباب الضعف والقوة فيه ويعرضه عرضاً واضحاً قوياً .

وامتاز الفقيد بأسلوبه السهل الذى يخضع اللغة للفكر ويؤثر الوضوح على تنميق العبارة ، وهو أسلوب جعل العبارة طيعة له لا تقضى على إبراز ما يريده فى جلاء ، من غير تصنع أو تكلف .

ولم تقف جهود الفقيد عند الكتابة والتأليف ، فقد شارك فى ترجمة بعض الكتب الهامة كقصة الفلسفة وقصة الأدب .

وكذلك كان للمؤلف جهد مشكور فى نشر الكتب القديمة وتحقيقها ، ككتاب الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيد ، وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه وشرح ديوان الحماسة ، وغير ذلك من الكتب التى كانت مجهولة ، فأخرجها وأبرزها فى صورة حديثة .

ويمكن القول كذلك بأنه كان وراء كثير من الإنتاج الذى لم يتوله بنفسه ، فقد كان مع إخوانه باللجنة يرسم الخطط لإخراج كتب فى موضوعات معينة ، ويتخير الكاتب الملائم لذلك ، ويشرف على إنجاز هذه المهمة النافعة .

وقد تولى إدارة الثقافة لوزارة التربية والتعليم فترة من الزمن ، فكان من آثاره إنشاء الجامعة الشعبية وتشجيع التأليف والترجمة بمكافآت مالية .



أحمد أمين يخطب فى الجامعة الشعبية



فهو منذ ولى الأعمال العامة دائب على نشر الثقافة ، ينشرها كاتباً فى الصحف والمجلات ، و ينشرها مؤلفاً لـكثير من الـكتب ، وينشرها مترجماً لبعض الـكتب الأجنبية النافعة ، و ينشرها بإخراج عيون التراث الأدبى القديمة وتحقيقها ، و ينشرها بتشجيع المؤلفين والمترجمين ، وأخيراً — لا آخراً — كان للفقيد ندوة مساء كل خميس بدار اللجنة يختلف إليها أعضاء اللجنة وأصدقاؤها من العلماء والأدباء ، وكان الفقيد واسطة الحلقة ، والرأس المنظم لما يدور بها ، وكنا نستمتع بما بفيضه علينا فى تلك الندوة من آراء و أفـكار وملح وأخبار .

يا أسفاه مضى ذلك !

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

شخصية أحمد أمين

بقلم الأستاذ

محمد فريد أبو حديد

عرفت الأستاذ أحمد أمين أول شبابي ، وتعودت منذ أربعين عاما أن أراه جانبا هاما من عالمي الذي أعيش فيه ؛ فمنذ خلا مكانه في الحياة شعرت بأنني قد فقدت بعض عالمي .

على أن أحمد أمين كان جانباً هاماً من عالم كثيرين غيري ، فقد كان يحل من أصدقائه في مثل المكانة التي حل فيها عندي ، وكان له تلاميذ لا عداد لهم بعضهم يتلقى عليه العلم في مدرسة القضاء الشرعي أو في الجامعة ، و بعضهم تلقى عليه العلم في مقالاته وفي محاضراته أو أحاديثه . وهؤلاء جميعاً يحسون فقده كما أحسه ، ومنذ خلى مكانه في الحياة يرون جانباً هاما من عالمهم قد أصبح خاليا .

ولكن أحمد أمين خلف لنا صورة باقية خالدة نتأملها كما نتأمل المعاني الأبدية ، وهي صورة لا يعتريها الفساد الذي يعتري الأجساد ولا تساورها الدوافع الدنيا التي تساور مادة الأرض . صورة هادئة يحيط بها السلام الشامل ، وتحتل مكانها بين الحقائق ، منزهة عن العواطف البشرية متجردة من الغايات والتحيز . ونحن إذ نتحدث اليوم عن أحمد أمين ، إنما نتحدث عن هذه الصورة الخالدة المقيمة إلى الأبد في عالم الصور المجردة التي تتكون منها معالم الطريق الإنساني نحو الكمال . والتي تتكون من مجموعها عقائدنا ومثلنا العليا ومقاييسنا الخلقية والاجتماعية والفلسفية .

وسوف يتحدث الكثيرون عن أحمد أمين كما نتحدث نحن عنه الآن لأنه منذ رحل عن دنيانا صار صديقاً للجميع . زميلا لأجيال كثيرة لم تخلق بعد ، يعيش معهم فى عالم الصور حياة أكمل من الحياة التى كان يعيشها معنا ، ويشغل من عقولهم ونفوسهم جوانب أرحب من الجوانب التى كان يشغلها منا . وهذه الأحاديث كلها ، سواء كانت من أحاديث الأصدقاء الذين عاصروه ، أو التلاميذ الذين استمدوا العلم منه ، أو من أحاديث الأجيال العدة التى يغمرها الغيب ، تعترف اعترافاً صريحا بأن الإنسانية مدينة له بأكبر الدين . وقد تتنوع تلك الأحاديث وقد تختلف فيها وجهات النظر وقد يشتد فيها الجدال حول الآراء التى خلفها لهم ؛ وهى فى كل الأحوال تردد الاعتراف الصريح بالدين العظيم الذى له فى أعناق الإنسانية .

ولست أدرى كيف أشعر وأنا أكتب هذه الكلمات بتيارين مختلفين من التأثر أحدهما إحساس بالإيناس والرضا ، والآخر إحساس بالإشفاق والتردد . فأما الإيناس والرضا ، فذلك لأنى أجد فى الكتابة عن أحمد أمين لوناً من الغبطة التى طالما نعمت بها فى مصاحبته ومحادثته ومناقشته ومعاطاته المودة ، ولأنى أستمتع فى أثناء الكتابة بتأمل صورته واستعادة ذكريات مجالسه السمحة ومواقفه الكريمة . وأما الإشفاق فذلك لأنى أتهيب الحديث عنه ، لعلمى بأن صورته التى أعرفها أبدع مما يتأتى لى بيانه فى هذه الألفاظ الضئيلة التى تعودنا أن نعبر بها عن المعانى المعتادة والصور المألوفة : وشخصية أحمد أمين بالنسبة إلى تنطوى على معان أدق من طاقة الألفاظ على البيان ، وإذا تأملتها انبعثت فى نفسى خلجات أعمق من طاقة الوصف على التحديد . ولو كان أحمد أمين رجلا عرفته وحدى لما شعرت بمثل هذا الإشفاق ، لأننى كنت أقنع بما يتهيأ لى من الوصف والتعبير ، وحسبى أن أصدر فيما أكتب عما أستطيع ، ولكن أحمد أمين رجل عرفه جيل كامل من معاصريه فى مصر وسائر الأقطار العربية ، وتحدث عنه ألوف وألوف

فى مشارق الأرض ومغاربها ، وسوف يعرفه ويتحدث عنه فى مستقبل الأجيال ألوف وألوف أخرى فى آفاق الأرض البعيدة والقريبة . سوف تنشغل أجيال من أبناء العروبة بتراثه الضخم من الفكر والأدب والعلم ، وسوف يتحدثون عنه ويرسمون صوراً شتى لشخصيته معتمدين على الآثار التى يستمدونها من آرائه وأدبه وطريقة بحثه . ومن حق الأمانة علىّ أن أقول لهؤلاء جميعاً إن الصورة التى أحاول رسمها لا تزيد على لمحة محدودة بدت لى من الجانب الذى عرفته ، وإننى أشعر شعوراً مخلصاً بأننى لا أستطيع أن أبرز لمحتى المحدودة إلا من وراء غشاء كثيف من اللفظ الساذج الذى تعود الناس أن يصوروا فيه مشاعرهم المعتادة ، وعذرى إليهم أننى أول من يدرك الفرق العظيم بين الصورة التى أراها فى خيالى وتذكارى و بين المحاولة القاصرة التى تتهيأ لى فى مقالى .

عاش أحمد أمين حياة مليئة خصبة ، لأنه أراد أن تكون حياته مليئة خصبة . وقد كان من أحب كلماته إليه عند ذكر أفذاذ العظماء الذين وهبوا حياتهم لخير الإنسانية ، أن يقول عنهم إنهم عاشوا حياة عريضة . وكثيراً ما سمعته يتمنى تلك الأمنية لنفسه فى صوت خافت كأنه يحدث بها الأقدار فى ضراعة وخشوع . وكان أكثر ما يخشاه فى آخر أيامه أن تمتد به الحياة طولا بغير أن تحتفظ بعرضها وخصبها ، فلم يرض أن يستمع إلى نصح المشفقين عليه من الجهد وكان يجيبهم قائلا إنه لا يريد الحياة إلا من أجل ذلك الجهد . وقد رأيته قبيل وفاته بأيام قلائل وكان عند ذلك يستعد للسفر إلى الإسكندرية وهو ظاهر البشر تشتمله هزة قوية تشبه هزات الشباب إلى التمتع بالحياة . وما كانت هذه الهزة القوية إلا من أجل تحفزه للعمل فى أيام الصيف المقبلة ليضيف فيها إضافة جديدة إلى تراثه الأدبى الجليل .

وقد رأيته مراراً كما رآه كثير من الأصدقاء فى أيام مرضه عندما كنا نخشى عليه فقد البصر وهو طريح الفراش ، وكان من أشد آلام المرض عليه أنه قضى أيامه ولياليه ساكناً لا يمتع نفسه بمواصلة العمل و بذل الجهد . وأغلب ظنى أنه

كان فى ساعاته الأخيرة يشعر بسعادة كبرى إذ تبين له آخر الأمر أن أمنيته قد تحققت وأن خواتيم حياته كانت مثل أوائلها عريضة عظيمة الخصب كما كان يريد .

ولم تكن حياة أحمد أمين مليئة خصبة من ناحية إنتاجه الفكرى والأدبى وحدهما ، لأنه كان فوق هذا قوة دافعة فذة تصدر عن حيوية فذة . وفى هذه الخصوبة وتلك القوة الدافعة تتمثل المعالم الكبرى لشخصيته كما تبدو فى كل أدوار حياته .

على أنى إذ أتحدث عن هذه المقدرة العجيبة على الإنتاج وهذه القوة الدافعة التى كانت تتجلى فيه إنما أصف الأثر الظاهر الذى يبدو أمام الأنظار وما هو إلا المظهر الخارجى لتكوين شخصيته الممتازة ، وما هو إلا الفيض الغزير الذى ينبع من معين طبعه الخصب .

وقد خيل إلىّ عندما بدأت الحديث عن أحمد أمين إننى لن أجد مشقة فى تعرف أسرار تلك الشخصية الفذة وتحديدها ، إذ أننى عرفت الرجل وخبرته وامتدت صداقتنا عشرات من السنين وقفنا خلالها فى مواقف شتى تكشف عن الطبائع الكامنة وتمتحن خفاياها . ولكنى عندما بدأت أجمع شوارد الذكريات لأستخلص منها الوصف الذى أطمئن إلى صدقه تجلت لى الحقيقة العجيبة التى تتجلى لنا دائماً إذا ما حاولنا أن نحدد أقرب الأشياء إلى أذهاننا وأوضح المشاعر فى نفوسنا . فمن أصعب الأشياء أن نوضح الواضح فى أذهاننا وأن نعبر عن الشاعر القوية الماثلة فى نفوسنا . ولعل قوة الأثر الذى يقع فى النفس يجعلنا لا نرضى عن الصورة التى نعبر بها عنه ، أو لعل امتزاج أحكامنا بالعاطفة القوية تجعلنا لا نرتاح إلى شى آخر غير تأمل الشعور نفسه .

ولقد كان لأحمد أمين فى نفسى مكانة كريمة منذ عرفته ، وكان له فى قلبى من المودة ما يجعلنى أرى شخصيته دائماً من خلال مودتى . فهل أستطيع هنا أن أقرر أن من أبرز مميزات شخصيته مقدرته على إثارة الثقة والمودة فى قلوب الأصدقاء ؟

هل استطيع أن أقول إن شخصية أحمد أمين تستمد جانباً كبيراً من قوتها من ذلك النبع الإلهى الذى يوحى بالألفة ؟

كان أحمد أمين يتوسط أصدقاءه وكأنه يجرد من نفسه لكل منهم شخصاً يناسبه و يلائمه ، و إن كان الأصدقاء أنفسهم يختلفون فيما بينهم فى الطباع والميول . وقد كان لهذه المقدرة على الألفة والإيحاء بالثقة أكبر الأثر فى قوته الدافعة التى كانت دائماً تؤثر فيما حوله . كان دائماً يتعاون و يثير فيمن حوله روح التعاون ، وكان دائماً صادقا مخلصاً و يثير فيما حوله روح الصدق والإخلاص . وكان صريحاً عادلا و يوسع صدره دائماً للصراحة والعدالة .

وكان يقدس الحق و يذعن له مسرعا راضياً ، حتى لقد كان فى بعض الأحيان يرتد من طرف فى الرأى إلى الطرف الآخر إذا ما تبدى له وجه الحق عند المناظرة . ولكنه كان فى الوقت عينه يتطلب الحق فلا يتساهل فيه ما دام قد احترمه مع غيره .

اجتمع فى يوم من الأيام فى مجلس الجامعة وكان من أعضاء المجلس رئيس وزارة سابق وهو (باشا) معروف بشدته وجفاء معاملته . وثارت مناقشة فى المجلس فأخذ الباشا يتحدث وكان فى حديثه شىء لم يعجب أحمد أمين فاندفع يقاطعه . فتوقف الباشا عن الكلام واتجه إليه قائلا « أرجوك ألا تقاطعنى » فخضع أحمد أمين للحق واعتذر حتى انتهى الباشا من حديثه فشرع يرد عليه بحجته . وفيما كان مستمرا فى كلامه اندفع الباشا يقاطعه . فتوقف هو لدوره واتجه إلى الباشا قائلا « أرجوك ألا تقاطعنى كما رجوتنى ألا أقاطعك » فلم يسع الرجل إلا أن خضع واعتذر .

ولم يكن ذلك دأب أحمد أمين فى حلقة أصدقائه خاصة فقد كان دائما يوحى بالثقة والمودة إلى من حوله . وكان دائما يبعث الحركة فيما حوله . وكان فى بعض الأحيان يندفع مع صراحته إلى شىء يشبه العنف ، ولكنه لم يخرج من أحد هذه

المواقف العنيفة بخدش فى الثقة أو المودة ، إذ كان إخلاصه وتقديسه للحق والعدل يمحوان كل ما فى صراحته العنيفة من صرامة . ولست أذكر أنه اتصل بعمل من الأعمال ولم ينفخ فيه روحا قويا ويدخل عليه إضافة جديدة قيمة . فعندما كان فى مدرسة القضاء الشرعى مدرسا ناشئا ، كانت فى مدرسة القضاء حركة حية له منها قسط وافر وعندما صار رئيسا للجنة التأليف والترجمة والنشر صار منها بمثابة المحرك القوى الذى لا يعرف الفتور ، ولما عين مديرا عاما لإدارة الثقافة العامة بوزارة المعارف جعل من إدارته أداة للاشعاع والتحريك فى نواح عدة وأنشأ الجامعة الشعبية ، ولما صار مديرا للإدارة الثقافية بالجامعة العربية كان له فى كل يوم فكرة جديدة وعمل إنشائى طريف ، والثقافة العربية مدينة له أكبر الدين بمشروع إنشاء مكتبة من الأفلام الصغيرة التى تسجل فيها نفائس المخطوطات ونوادر المؤلفات العربية القديمة . كان له معين لا ينضب من التجديد والابتكار ومن ورائه عزيمة قوية لا تعرف التردد . وقد كنت أعجب كثيراً مما كان يبدو لى فيه مما يشبه التناقض بين مظهره الوديع وجانبه اللين وبين إرادته القوية التى تكاد تكون صارمة . كنت أراه كما يراه أصدقاؤه جميعا هادئا سمحا عذبا ، فإذا ما بدا له وجه الحق فى أمر من الأمور لم يخرج عن هدوئه وسماحته وعذوبته ولكنه كان يمضى فى سبيله كأصلب ما يكون إرادة . كان لا يحب التردد ويقول أحياناً إن المضى فى تحقيق الغاية وإن كان مع الخطأ خير من التردد والتزعزع وإن كان ذلك لتحرى الصواب . ومع هذا فقد دلت التجربة الطويلة على أنه كان فى عزماته يصدر عن طبيعة كاشفة موفقة .

ولست أدرى على وجه التحقيق ماذا كانت فلسفة أحمد أمين فى الحياة أو بقول أدق كانت له فلسفة خاصة لا تشبه فى شىء مذهباً قائما بنفسه . كان عظيم البشر مرح النفس ولكنه مع هذا كان شديدا الجد ولم يخل من بعض التشاؤم . وكان زاهدا فى مظاهر الحياة ولكنه لم يكن رواقيا ، وكان يأخذ الناس كما يجدهم ولا يكلف

الأشياء ضد طباعها ولـكنه مع هذا لم يكن واقعيا عمليا بمعنى الفلسفة الواقعية بل كان يؤمن بالقيم الأخلاقية والمثل العليا . وكان يميل إلى التفاهم على الحلول الوسطى فى شئون الحياة ولـكنه كان لا يتساهل فى معانى الـكرامة والنزاهة والمروءة . كان كريما إلى أبعد حدود الـكرم ولـكنه مع هذا كان لا يحب الإسراف . كان متدينا أعمق الإيمان ولـكنه كان يفسح عقله للمناقشة الحرة إلى أبعد حدود الحرية . كان يقدس المنطق و يتحكم فى عواطفه ولـكن قلبه كان يتقد حرارة ولا يكبح قلبه عن نبضات العواطف . كان يحب التمتع بالحياة ولـكنه كان متواضعا إلى أقصى حدود التواضع ولـكنه كان أحيانا يتعالى إلى حد الـكبرياء . كان ينعى على الأسد سطوته ولـكنه يرثى للأسد الجريح . ومن أجل هذا كله خيل إلى أنه صاحب فلسفة خاصة حدد بها حياته ولـكنها فلسفة تجمع أشتاتا من المعانى لا تأتلف إلا فى شخصه . وكانت فيه طيبة تتمثل فى بساطة مظهره و بساطة معشره و بساطة نمط حياته ، وكانت تتمثل فى بساطة تفكيره وبساطة أسلوبه فى العمل ، ولم تفارقه هذه الطيبة بما فيها من مظاهر البساطة منذ شبابه إلى آخر حياته .

ومن آثار تلك الطبيعة السهلة أنه كان لا يعبأ كثيرا بالأوضاع المألوفة ، فلم يحور يوما من مسلـكه ابتغاء مرضاة غيره . كان عميدا لـكلية الآداب وقت أن كان الحـكم فى يد حزب قوى لا يقف شىء أمام سلطانه الساحق . ولما تعارض مسلـكه وأسلوب فـكره مع المسلك الذى تريده وزارة ذلك الحزب لم يتردد فى الاستقالة . ولـكنه لم يلفت الأنظار إلى استقالته كما تعود غيره حتى كاد أصدقاؤه أنفسهم لا يفطنون إلى عزيمته . ولما ناقشه بعض أصدقائه فى ذلك لم يزد على أن أظهر دهشته من أن الأمر لا يستحق أن يلتفت إليه أحد . ولم يكن يأخذ فى اعتباره عند الحـكم على الأشخاص ما يكون لهم من المـكانة الاجتماعية ، وكان يقيم أحكامه على أساس واحـد يستمده من القيم الإنسانية المجردة من المظاهر

المصطنعة . وما كان ينكر شيئا مثل إنـكاره ما يطرأ على الناس من تغير إذا بلغوا شيئا من الجاه أو السلطة ؛ و يرى ذلك علامة على فقدان الأصالة فى الشخصية. و إنه لمن الإنصاف له أن أقول عنه أنه كان من أصدق الناس أصالة فى شخصيته . رأيته منذ أر بعين عاما لأول مرة فرأيت شابا طوالا يسير متمهلا و ينطق متمهلا بصوت هادئ فيه نغمة تنم حركة وحرارة ، وتميز نطقه لثغة بالراء تكسب ألفاظه رخامة وكان يلبس منظارا سميكا تبدو من تحته عينان تشعان طيبة و بساطة . وكان يلبس زى الشيوخ و يتخذ لنفسه لحية خفيفة لأنه تخرج فى مدرسة القضاء . الشرعى وكان عليه أن يلتزم الحدود التى يلتزمها علماء الدين فى مظهرهم .

ولست أذكر أنى رأيته يوما يختار لونا من الألوان الزاهية التى كانت تميز زى الشيوخ فى تلك الأيام ولـكنه مع هذا كان يبدو أنيقا من أثر الانسجام بين هدوء طبيعته وهدوء ظاهره .

وتوثقت المودة بيننا شيئا بعد شىء على مر الأيام وأخذت أتعرف حقيقته شيئا بعد شىء . و إنه لمن أعجب الأمور أن يتأمل الإنسان ذلك الشاب الشيخ منذ أر بعين عاما ثم يتأمله فى آخر حياته بعد أن تم نموه وكملت شخصيته ، فلا يكاد يرى فرقا بين الحالين فى كل ما هو جوهرى فى الشخصية . وما ذلك إلا لأن أحمد أمين الشاب كان ينطوى على طبائع أصيلة تطورت ونمت ولـكنها بقيت محتفظة بكيانها وجوهرها .

وكان من تمام أصالة أحمد أمين أنه لم يعتمد فى حياته على شىء سوى أصالته ، وقت أن كان الـكثيرون يعتمدون على مناصرة الأقوياء أو معاونة الأولياء . فقد شق أحمد أمين طر يقه وحيدا فردا . بدأ معلما فى مدرسة القضاء فقاضيا فمدرسا فى الجامعة فأستاذا ، ثم تنقل فى درب البحث العلمى والأدبى وأنتج ما أنتج غير معتمد على شىء سوى أصالته . لم يكن يعرف لغة أجنبية فوجد أنه يحتاج إليها فعكف على دراستها حتى استطاع أن يفتح مغاليق المراجع الانجليزية و يغترف

منها ما شاء من مكتبة غنية اقتناها لنفسه . ولما بدأ التدريس فى الجامعة لم يكن قد تخصص فى دراسة الأدب واللغة إلا بمقدار ما يتخصص فيها طالب الأزهر ومدرسة القضاء الشرعى ، ولكنه شق طريقه حتى لمع اسمه كأستاذ فذ تفخر به الجامعة . وكان يقدم فى كل الميادين التى عمل فيها على مشروعات جديدة لم يحاول أحد من قبله أن يقدم عليها ، فإذا هو يشق فيها طريقه قويا ويخلف منها عملا ضخما قويا . ومع كل هذا كان أحمد أمين يبدو هادئا متسهلا كأنه لم يشق طريقه فى الصخر حتى يصل إلى القمة التى لا يصل إليها سوى أفذاذ البشر ، وما ذلك إلا لأنه كان يحس فى أعماقه أنه لم يبلغ سوى مرتبة طبيعية كان لا بد له أن يصل إليها . كان مثل الشجرة الطيبة التى نقل فى نموها إلى مسارح السحب ولا تستطيع إلا أن تبلغ إلى تلك الغاية فى نموها ، لأنه كان أصيلا فى شخصيته الضخمة مثل الشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء .

صورة أحمد أمين

بقلم الأستاذ

محمود تيمور

كنت سائرا ضحوة يوم فى شارع « قصر العينى » فصادفت امرأً يعبر الطريق ، وهو يسارق الخطا ، هين المشية ، خاشع البصر ، يتلفت فى مراقبة ، وحذار ، كأنما يستخفى عن أعين الناس ؟

لو تاح لك أن تصادف امرءا هذه صفته ، لجرى فى خاطرك على الفور أنك ترى رجلا من أولئك الذين ننعتهم بطيبة النفس ، وصفاء النية ، والكف عن الضرب فى غمرات الحياة ، ولحدثتك نفسك بأن هذا الرجل يستوحش من الدنيا ، كأنه بين أهليها غريب !

ولعلك لا تلبث أن تجد الرجل قد أثار بين جوانحك عاطفة من التوسم له ، والتعرف به ، فإذا أنت متأثر خطاه ، تريد استطلاع أمره ، يحدوك إلى ذلك ما تلمح من سمت غير مألوف .

وما هى إلا أن ترى الرجل قد عرج على دار « المجمع اللغوى » وأخذ يتسامى على سلمه ، متلقيا ممن حوله تحايا الاستقبال ، وهو يردها بأحسن منها فى وداعة محببه تجلوها ابتسامة خفرة ، وأنك لتجده يسخو بهذه التحية لمستقبليه من الكبراء وغير الكبراء بدرجة سواء .

ويستهويك ما تشهد من أمر الرجل ، فتتابعه فى مسيره ، حتى يسلمك إلى قاعة مديدة تغص بمنضدة مبسوطة ، قد ترصصت عليها كتل من الأسفار ، ما أشبهها بجماجم أثرية ضخام !

وثمة ترى صاحبك قد أوغل فى القاعة ، حتى إذا بلغ منها مكانا قصيا ، اتخذ مجلسه فى سكينة وركون ، كأنه يخشى أن يشعر بمقدمه أحد ، وما أسرع أن يمد يمينه إلى سفر من هذه الأسفار ، فيقلب فى صفحاته لحظات ، ثم يمسك عنه ، وقد تكمش فى مجلسه وأطرق ، حتى لتقول أغفى !

وتعمر جوانب القاعة بالقصاد ، ويكتمل الجمع ، فيتجاذب الرفاق أطراف النقاش ، وتدور بينهم معركة الرأى حامية الوطيس ، وصاحبك على حاله ، لا تنبس له شفة ، ولا يطرف له جفن ، فتحسب أنه ساه عما حوله ، لا يجرى شىء منه بباله ، فتتركه وشأنه ، ويشغلك التحاور والجدال . وفيما أنت كذلك إذ يداعب سمعك صوت يختلج مترفقا يحاول أن يجد له طريقا فى ملتطم ذلك الزحام ، وإذا تبينت القائل عرفت أنه صاحبك المنطوى على غفوته ، فتأذن له وأنت عليه مشفق ، فيروعك أنه قد استبطن الصميم من البحث ، وأنه يجمع لك فى فقرات ما تشعب من أطراف الرأى ، ولا يعتم أن ينتهى بك إلى حكم تأنس إليه النفوس ، وتضيق به فسحة الخلاف !

وتظل مسحور السمع بهذه المساجلات الطريفة التى تصطرع فيها عقول ، وتستطع بدائه ، غافلا عن استشارة تلك الساعة العتيقة التى تبرز على حائط القاعة وما أنت لو استشرتها بمستفيد ضبطا لوقتك ، فإنما هى ساعة مجمعية ، كأنما أعليت فى مكانها لتستهزىء بدورة الفلك ، وتسخر من حساب الزمن .

ولتجدن المناقشات قد تناوحت يمنة ويسرة ، ولربما اشتد اشتباكها واحتد ، وأنت معقود العين بصاحبك ، تقفو مشاركاته فيما يتراءى من وجهات النظر ، فإذا بشخصيته تتوضح لك شيئا بعد شىء ، وكأنك تجتلى كتابا شائقا جد شائق ، كلما قلبت من صفحاته ازددت به من تعلق ، وطمحت منه إلى جديد !

إنه فى شتى مناقشاته ومناقلاته لا يفارق سمته ، فهو أبدا هادىء القسمات ،

رفيق الإشارة ، أريحى الروح ، يتميز بذلك الصوت المختلج الحى . . . ولكنك تستبين من وراء ذلك كله إيمانا منه بفكرته ، وثباتا فى تعزيزها ، ولباقة فى الدعوة إليها .

وإذا بهذا الرجل الذى رأيته أول ما رأيته متكمشا مستوحشا ، فحسبته ممن لا حظ لهم فى معترك الحياة — قد تفتق إهابه عن زعامة بصيرة قادرة تنتهج لها طريقا لا عوج فيه .

وتعجب لصاحبك ، وقد استحر نقاشه ، وجعل يطارح رفاقه مصطلحات العلم فى صلابتها وخشونتها ، إذ تراه وقد دس بين هذه الصخور والجنادل — فى الفينة بعد الفنية — ملحة فكهة ، أو مزحة طريفة ، لا تلبث أن تشيع فى جو المجلس نسمة من الطرب والمراح . فتعلم أن صاحبك على وثاقة علمه ، وأصالة وقاره ، يجيد ما يجيده « ابن البلد » من خفة و إيناس ، فهو يحسن أن يستخرج من اللفظة الجافية « لابن‌سيده » أو القاعدة المعقدة « لسيبويه » نكتة ضاحكة ، أو دعابة لطيفة ، تحيل تلك الجنادل والصخور رياضاً حالية بالنضرة والازدهار . . .

ولا يكاد ينتهى بك المجلس الأول فى صحبة الرجل ، حتى يغريك ما استبان لك من أمره بأن تطلب المزيد .

* * *

إذا جاز لنا أن نوجز وصف « أحمد أمين » فى كلمة ، قلنا : إنه « بناء » !

ولقد ملكت هواه نزعة البناء والتشييد ، وأولع بها أيما ولوع ، فوقف عليها فكره وجهده ، تارة يزاول ويمارس ، وطوراً يشرف ويرعى ، وحيناً يحض ويدعو .

وخير ما يمتاز به هذا « البناء » فى نزعته ، أنه اجتماعى عصرى ، وأنه واقعى عملى ، إذا عنت له فكرة رسمها فى ذهنه أدق رسم ، وجعل لها خطة محكمة ، وقدر

لها كل ما عساه يكون من أقدار . ولا يكاد يمد يده ليضع الحجر الأساسى لهذه الفكرة ، حتى يكون قد استوثق من الأمر غاية الاستيثاق ، وأحاطه بما يكفل له الرسوخ والشموخ ، فإذا البنيان تعلودعائمه ، و إذا هو حصن للقرائح والعقول .

وعبقرية هذا « البناء » العظيم تتمثل فى أنه يجعل لنزعته طابعاً من التجديد ، لا مغالاة فيه ولا انسلاخ . فهو إذا شيد التمس لأساس بنيانه عتاداً من كنوز الشرق وأمجاده ، ولكنه يقيم على هذا الأساس طرازاً تتوافر له كل مزايا التحضر العصرى والعمران الحديث .

وهذا « البناء » العظيم يرمى دائماً من وراء سعيه إلى هدف مقصود ، ذلك أن له رسالة إصلاحية واضحة ، يبتغى بها تجديد العقلية العربية ، و إمدادها بما يعينها على ملاحقة الزمان فى سيره الحثيث .

حول محور هذه الرسالة الإصلاحية يدور فكر الرجل ، ولا يمل أن يدور . وكأن هذا المحور مغزل يستمد منه الخيوط لينسج منها أعماله ومساعيه ونفحات قلمه .

أقرأ كتابه « فجر الإسلام » وصنويه : « الضحى » و « الظهر » تجده يؤرخ الحياة العقلية للمسلمين فى مواضى الحقب ، ولكنك تستطيع أن تلمح خلف مظاهر البحث والدرس لوامع تلك الروح الأصيلة ، روح الدعوة إلى الإصلاح ، والتوجيه إليه ، إذ هو يجلو لك منهاج الفكر العربى فى تطوره وسموه ، و يميط الغبار عن معالمه ، و يريك الضوء من مصابيحه .

ولم يكن عجباً أن يشغف الرجل بدراسة القادة الأعلام الذين هم طليعة النهضة فى الشرق الجديد ، و إن كتابه « زعماء الإصلاح فى العصر الحديث » ليكشف لك أن الرجل يعنى أكبر ما يعنى فى تاريخ أولئك القادة الأعلام وتصوير حياتهم بإبراز ما كان لهم من جهود فى سبيل النهوض بالعقلية الشرقية ، وفى نشر رسالة التجديد .

و إليك كتابه « فيض الخاطر » ، لـكأنه « فلم » سينمائى تتوالى فيه الصور والمشاهد « فيلم » تنطبع عليه استجابة ذلك « البناء » الداعى إلى الإصلاح لـكل ما يلابسه فى الحياة والمجتمع . و إنها لصور شائقة ، ومشاهد رائعة ، تأنس فيها قبسة من الفن فى العرض والتعبير ، حتى لتدهش إذ تتجلى لك — فى شخصية هذا العالم الدارس — صبغة الأديب الفنان .

وأنت لو تصفحت مختلف الجوانب من شـخصية « أحمد أمين » لطالعت عينك صورة قاض تتوضح فيه نزعة القضاء بأوفى ما فيها من خلال الدقة والوزن والنظام وأكرم ما فيها من خصال النزاهة والعدالة و يقظة الضمير .

إنه قاض فى خاصة شأنه مع نفسه ، قاض فى حديث مجلسه ، قاض فى الجامعة وأستاذا على مكتبه رئيس عمل ، قاض فى معاملاته مع الناس بين قريب و بعيد ، قاض فيما يجرى به قلمه من مباحث ودراسات وخواطر . . .

وقد عرفت الأقدار نزعته القضائية فى بواكيرها ، حين شب شبابه ، فأرادت له أن يكون أحد قضاة الشرع ، يفصـل فيما هنالك من خصومة ونزاع . . . ولـكنه لم يمكث فى منصب القضاء طويلا ، فترك الميدان المحدود ، ليكون قاضياً طليقا لا تقف به قيود المهنة عند غاية ، ولبث فى دنياه ، على اختلاف مناصبه وتنوع مجالات نشاطه ، تملـكه نزعة القضاء ، وتهيمن على فـكره ما وسعها أن أن تهيمن .

وهذه النزعة القضائية قد وسمت حياة الرجل فى مناحيها العقلية والاجتماعية بسمة الاعتـدال . . . فهو معتدل أبداً فى تقديراته وأحكامه ، معتدل أبداً فى علاقاته ووشائجه ، لا يجمح فى القسوة ، ولا يتراخى فى اللين . يحب حين يحب هوناً ما ، و يبغض إذا أبغض هونا ما . أنأى ما يكون عن التعصب والتحزب ،

آنف ما يكون للسرف والتطرف ، أميل ما يكون إلى الموادعة والحسنى !

والعجب العاجب فى شخصية « أحمد أمين » أن نشأته قد اكتنفها كل دواعى التحفظ ، من معتقدات راسخة ، وتقاليد صارمة ، وتعاليم جامدة ... ولكن فكره توهج والتمع وسط ذلك كله ، كما يتلألأ الجوهر النقى ، وخرج يلتمس الطلاقة فى الأفق : الأفق الرحيب . فإذا التمسنا الآن حرية الفكر بين القادة الأعلام ، ألفيناه منار الطريق .

أحمد أمين ... الكاتب

بقلم العلامة

الأمير مصطفى الشهابى

رحم الله الأستاذ العلامة أحمد أمين فلقد قضى عمره فى خدمة آداب لغتنا الضادية المضرية ؛ وترك لأبناء يعرب ثروة من المؤلفات النفيسة ، ستبقى حية يتناقلها شبابنا المثقف جيلا بعد جيل .

فأى شاب عربى من المتأدبين لم يطالع مجلدات تلك السلسلة الرائعة من تاريخ الأدب العربى التى تبدأ بفجر الإسلام ، وتنتقل إلى ضحى الإسلام ، فإلى ظهر الإسلام ، وكلها كنوز من المعرفة كتبت بأسهل لسان ، ونقلت عن أصح مصادر ، واشتملت على أدق الآراء العلمية .

وأى متأدب عربى لم يقرأ مقالاته وأبحاثه الأدبية والاجتماعية والخلقية فى مجلة الرسالة ، ثم فى مجلة الثقافة ، وقد تألف منها ذلك السفر النفيس المسمى فيض الخاطر فى تسعة أجزاء .

ومنذا الذى لم يقرأ كتابا من مئات الكتب التى نشرتها لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وهى اللجنة الشهيرة التى يدير شؤونها رهط من الأدباء والعلماء ، والتى مكث الفقيد رئيساً لها من الزمن كادت تبلغ أربعين سنة .

وهناك كتاب « الأخلاق » طبع خمس مرات ، وهو يعد من أجل الكتب فى بابه ، وكتاب « حياتى » صور فيه حياته وحياة رجال عصره وبيئته أجمل تصوير . ثم هناك مشاركته للدكتور شوقى ضيف فى تحقيق الخريدة للأصفهانى وللأستاذ أحمد الزين فى تحقيق كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى ، وفى تأليف قصة الفلسفة اليونانية مع الدكتور زكى نجيب محمود وقصة الفلسفة الحديثة فى

جزأين ؛ وقصة الأدب فى العالم فى أربعة أجزاء ، وهناك دروسه فى النقد الأدبى بكلية الآداب وقد نشرها فى جزأين إلى آخر ذلك المنتوج الأدبى والعلمى الذى خلد اسمه فى عداد كبار أدبائنا العاملين المجدين .

والفقيد مصرى صميم يقول فى كتاب « حياتى » إن أباه كان فلاحاً من مديرية البحيرة ، هجر القرية إلى القاهرة ، هربا من الظلم والسخرة ، والتحق بالأزهر ، ثم كان مصححاً بالمطبعة الأميرية ببولاق ، وجعل ينسخ المخطوطات ويجمع الكتب ، فنشأ ابنه أحمد أمين بين الكتب والقراطيس والمحابر .

وكان من الأمور المألوفة فى حداثة أحمد أمين أن يدرس هو وأمثاله فى كتّاب أو فى مدرسة ابتدائية ، وأن يلتحقوا بعدئذ بالأزهر حيث يقضون السنين الطوال فى دراسة العلوم الدينية والعربية . وسار الفقيد هذه السيرة . ولكنه ما لبث طويلا فى الأزهر ، فلقد نجح فى دخول مدرسة القضاء الشرعى ، فتخرج منها ثم عين قاضياً شرعياً .

ومن الغريب أنه تعلم اللغة الإنكليزية على معلمة من بنات الإنكليز كانت تسكن مصر ، وراح يطالع العلوم الحديثة ومؤلفات المستشرقين بهذه اللغة ، ولذلك عد من أدباء مصر القلائل المشهورين الذين تثقفوا بالثقافتين العربية والغربية ، فكان لهم أثر محمود فى نهضة الأدب العربى فى العصر الحاضر .

ولم يمكث الفقيد مدة طويلة فى القضاء ، فقد كلف منذ سنة ١٩٢٦ بتدريس الأدب العربى فى كلية الآداب بجامعة القاهرة ، فراح يلقى على طلابها دروساً فى النقد الأدبى ، كما راح يهيئ عدداً من مصنفاته المعروفة . وقد واتته بيئة الجامعة ، ووجد فيها مجالا واسعاً للمدارسة والتأليف ، فكان فى الكلية أستاذاً ، وعميداً مدة من الزمن ، ثم منحه مجلس الجامعة لقب دكتور فخرى فصار يسمى الدكتور أحمد أمين .

لقد كان رحمه الله من أساطين النهضة الأدبية فى هذا القرن ، سواء أفى لدروس التى ألقاها فى كلية الآداب ، أم فى تصنيف الكتب الممتعة ، أم فى رياسته

للجنة التأليف والترجمة والنشر ، أم فى اشتراكه فى أعمال مجمع اللغة العربية ، أم فى بحوثه فى مؤتمرات المستشرقين ، أم فى أحاديثه بمحطة الإذاعة المصرية والشرق الأدنى ، أم فى رياسته للإدارة الثقافية التابعة لجامعة الدول العربية .

عرفته منذ نحو ربع قرن يوم زارنا فى المجمع العلمى العربى بدمشق مع لفيف من طلاب كلية الآداب . ثم توثقت عرى الصداقة بيننا فى رحلاتى إلى القاهرة . وأهديت إليه معجمى ، وأهدى إلىّ ثلاثة من كتبه ، وكلما كنا نجتمع كنت أجد فيه الخلق الرضى ، والعقل الراجح ، والثقافة الواسعة ، والفكر النير ، والحرص على إحياء تراث الأجداد ، وعلى تربية النشء العربى ، تربية قوامها التحلى بالأخلاق الإسلامية الفاضلة ، ومحبة الوطن ، وخدمة الملة خدمة صادقة بعيدة عن الأثرة .

أذكر أننى سألته مرة : لماذا لا يعنى فى مؤلفاته ومقالاته بالمبنى بقدر عنايته بالمعنى ؟ فتبسم وأجاب قائلا : هـذا هو أسلوبى فى الكتابة ، ولكل كاتب أسلوبه ، فأنا يهمنى أن يفهم القارئ من أبناء هـذا العصر مواضيع كتبى ، ولا يهمنى أن يتعلم البيان منها .

وهكذا كان أسلوبه فى الكتابة سهلا مبسطاً ، حتى أن القارىء المتوسط الثقافة ، لا يلاقى أدنى مشقة فى فهم مختلف الموضوعات الأدبية والاجتماعية والخلقية التى صنف الفقيد أو حاضر فيها .

لم يخدم الفقيد بجهده المبرور أبناء مصر الشقيقة وحدها ، بل خدم متأدبى البلاد العربية كافةً . وما من متأدب زارنى بدمشق بعد وفاته إلا وجدته حزيناً على فقده .

رحم الله الأستاذ أحمد أمين فقد أدى فى حياته ما عليه من واجب للوطن العربى ، وأدى بكتبه الخالدة واجبه بعد مماته . . .

لمحات من أحمد أمين

بقـــلم السيدة

وداد سكاكيني

حزنت من أجله قبل موته فقد أحسست اقتراب أجله ورحيله ، يوم رأيته للمرة الأخيرة فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، حيث احتفلت هيئته بانتخاب صديقه توفيق الحكيم فى عداد المجمعيين ، وكان أحمد أمين يحب فن الحكيم فلم يتخلف عن حضور الحفل البهيج ، على الرغم مما كان يعانى من وهن فى جسمه ، غالب ضناه بالتجلد والتحامل .

لقد أقبل بطىء الحركات فاتر اللمحات وقور الطلعة ، فدعوته للجلوس بجنبى ، وما كاد يرانى و يعرفنى حتى حمد لى ما كتبت عن آخر[1] مؤلف له ، وهو « قاموس التقاليد والعادات والتعابير المصرية » .

كان مجلسه يومذاك على تخوم الدنيا مشرفاً على عالم آخر ، طالما دومت روحه فى آفاقه باحثة عن الخلود والخالدين ، باعثة آثارهم وأخبارهم فى كتبه ومقالاته ، وقد عجبت لذلك البرزخ الذى جلس فيه أحمد أمين يشهد انتظام صديقه الحكيم فى سلك الأعضاء المجمعيين ، وكأنه جاء مودعا وفى المجمع صحبه وأنداده ، فلم يشأ أن يغادره و يفوته آخر مجلس فيه قبل أن يلقى نظراته الأخيرة على هؤلاء الذين سلخ العمر معهم بين مطارحات الفكر والنقد ، ومجالس الثقافة والأدب .

كنت أرنو إليه مشفقة متأسفة ، وقد وهى جسمه وكلّ بصره وارتعشت

---

(١) نشر بعد وفاته كتابه « بين الشرق والغرب »

يداه من مجهود طويل لا من هرم ، فكان مثل الشمس فى الأصيل ترمى بشعاعها الوانى وهى توشك على الغروب ، فما أقسى ما تصنع نواميس الحياة ! إنها حتم على الجميع ، ولقد قيل فى الأثر « كل امرئ ما يحسن » فليت حوادث الدهر سكبت بقسطاس ، فتجاوزت عن المحسنين الأفذاذ الذين منهم أحمد أمين ، وليس هذا منى معارضة أو تجانفاً لكنه تظلم وابتئاس ، من أجل أناس تفردوا بمزايا ومواهب لم تكن إلا فى الأقلين عددا ، ممن يظهرون على أطراف السنين ، فلو رأينا هذا الفقيد الحميد من نشأته إلى مماته مثلما نرى شريطاً سينمائياً ، وهل كانت الحياة فى حقيقتها إلا من هذا القبيل ؟ لقلنا أين نحن الآن من أحمد أمين ؟

إنه أصبح بجثمانه فى عالم العدم ، إن صح أن يكون للعدم عالم ، ولم يبق إلا ذكره وأثره فيمن خلف وفيما أبقى من مؤلفات قيمة ومشاركة فى البناء والتهذيب ، ورسالة علمية يؤديها من بعده كل من اهتدى بهديه ، واقتدى بكفاحه وسيرته من تلاميذه ومريديه .

تساءلت هذا التساؤل لأتقصى مراحل البناء والإعداد فى هذا العالم الأديب ، فهو لم يبن بيسر وطفرة ، وإنما بنى بزيت الليالى التى طالت وترجرجت مصابيحها على دفاتره وأوراقه يحبرها ويحررها بدقة ومعرفة وتمكين ، ولقد أنشأ نفسه الكبيرة بعلم وحذق ومراس فى طويل الأيام والأعوام ، حتى أعطى الزمان فيه ذلك الإنسان الموهوب الدؤوب ، الذى ملأ دنيا مصر والإسلام بذكره وخبره ، وأقبل عليه طلابه وعارفوه مثل إقبال العطاش على النبع الروىّ الفياض .

ولئن أوتى رجاحة وخصباً ورأيا فإن هذه الميزات شغلته طوال عمره وجعلته لا يستريح ، فقد عاش باحثاً ممحصاً يؤلف الكتب ويلقى المحاضرات ويملى الخواطر حتى آخر لحظة من حياته ، وكان يحمد لربه حين دهمه الداء منذ بضع سنوات أن أبقى عليه سلامة الفكر والمنطق ، ولما تجنى عليه كبير العلماء فى دمشق نشر

فى « الثقافة » مقالاً عنيفاً دافع فيه عن نفسه معتصماً برجاحته وكرامته ، مشفقاً على ظالمه من جموح الرأى وهياج الأعصاب .

أما عقله وعلمه فكانا يظهران من بين سطوره وآثاره ، ظهور النجوم فى صفحة السماء متلألئة ساطعة ، ولو أن نصيبه جرى فى الفلسفة وحدها فتمرس بها واختص بدراستها ، لكان أحد أساطينها فى العصر الحديث ، فقد اتخذ المنطق عدّة فى تأليفه وتصنيفه ، ولهذا ظهر فى أحكامه الأدبية التحديد والاستقصاء فى تثبت وتجرد ، فلم يمل مع الهوى ولا انحرف عن الغاية العلمية بل اتخذ الحقيقة هدفاً ومراداً ، وحين صور الحياة العقلية فى فجر الإسلام ، وفى ضحاه وظهره ، وفى يوم الإسلام وغيره ، أعطى أحمد أمين مثالا للعالم الثبت الذى لا يعبأ برضى طائفة دون طائفة ولا بقوم دون قوم ، ولو بقى وحده فى صف واحد والعالم جميعاً فى صف آخر ، وقد جر عليه هذا المذهب تعباً وغضباً ، فلم يأبه للناقمين والمتعنتين لكنه بات حزيناً لأنهم لم يفهموا عنه مقاصد قوله وتأويله ، وما قدروا الحرية والسلامة فى كلامه ومرامه ، فهو لم يبتغ زلفى ولا ذكرى ، ولا داور أو غالط فى موضوعات شائكة بل تجرد لها وخاض فيها ، غير متهيب ولا متحرج ، وخرج منها بما ارتأى واستنبط من حكم وتقدير مطمئناً مقرراً ، ولا بد من يوم قريب تواعدنا فيه قبيل وفاته بمقال أزحزح بالحجة والبرهان ما ثار من غبار حول آرائه الجريئة التى لم يتقبلها كثير ممن خالفوه وناقدوه ، وما كان يرحمه الله متأبياً على الحق ، فإذا لاح له الصواب عاد إليه راضياً مغتبطاً .

على أن المتتبع لحياة الفقيد وسيرته ، كان يشهد اتجاه تفكيره وشعوره ، فلم يكن على تعمقه فى الأمور وشدته فى الحقيقة غليظ القلب متعنتاً أو قاسياً ، و إن غلب عقله دائماً ، بل كان مترفقاً بالضعيف عف اللسان والقلم يستجيب للمستجير والهضيم وملتمس العون العلمى والتوجيه فيساعفه و يغيثه لكنه يعود إلى حرية الفكر والرأى التى آثرها فى حياته ووجهته ، فيرضى نفسه ومنهاجه ، بنصيحة يسديها

أو كلمة يسدد بها خطة أنجزها لباحث أو دارس ، ولم يجعلها حجة له أو مجازاً ، ولن ننسى ما اتفق له حين استجاره طالب سورى للدكتوراه حدب عليه وأغاثه ، ولما كان الغد نشر الدكتور أحمد أمين فكرة الأسبوع بمجلة « الثقافة » وفيها رأيه الصريح ببحث الطالب لئلا يحسب العون رضى فيخامره الغرور .

وكان هذا دأبه فى حرية الحكم على الدراسات الجامعية والفكرية ، نصيحاً فى نقده صريحاً فى تعبيره ، وهو على جده ووقاره كان لا يتحرج من نكتة يزجيها فى الحوار والامتحان ، يخفف من جفاف المناقشة والمطارحة .

وقد كتب تحت صورته فى شبابه وهو بعمامته أمانيّه فى الوجود بأن يكون نافعاً لغيره ، وكأنه رسم إذ ذاك ناموس عمره ومنهاج علمه وعمله ، فما انحرف ولا تعسف ، وما زاغ ولا راغ ، وكان أول آثاره فى « الأخلاق » فدعا إلى التمرس بها فى المعاملة والمعيشة فى البيت والمجتمع ، وقد تجافى عن التشدق والتأنق ، ففضل البساطة فى الأداء والمظهر عن طبع وحرية ، ولم يعرف عنه الملق لحاكم أو الزلفى لطاغية أو خطير ، كما تورط كثير من الأدباء والمؤلفين الذين تنصلوا مما صنعوا فى العهد السابق تكلفاً أو طوعا ، وقد سألته مرة وكان منشرحا للجواب : لم أجد فيما نشرت مديحاً للملك المخلوع لا بسانحة عيد أو ميلاد ، أو حفل عام .

فتبسم يرحمه الله ابتسامة طفل وديع وقال :

... مرة واحدة ، فعلتها على الرغم منى ، فكانت كلمة باردة جافة ، فيها تكلف يخالف طبعى ، فلما قرئت ظهرت جسما من غير روح ، وانكشفت فيها حقيقتى بالتأبى على غير ما أومن به وأعتقد ، فأهملت الكلمة . . .

ووفى أحمد أمين بعهده وبرّ بنذره فوهب علمه وجهده للجامعة والحياة الفكرية فكان نافعاً موجِّهاً أفاد الألوف من الطلاب والمتأدبين بمصر والبلاد العربية ، وتعد كتبه اليوم من أجل المراجع وأحسنها نسقاً وتوثيقاً كما أن ثقافته الواسعة

الجامعة بين القديم والحديث ، أتاحت لكل قارئ أن ينشد فيها متعة ونفعاً .

إن نواحى القول فى هذا الفقيد العظيم عديدة لا تحصى ، فيها سيرته وحياته ، وفيها علم وأدبه ومنطقه ورأيه ، وتعهده لكثير من شؤون التأليف والترجمة والثقافة ، و بين هذه النواحى تبرز المرأة التى كان أحمد أمين نصيراً لها مؤيداً لتعليمها ونهضتها ، فما وضع فى طريقها الشوك ، ولا جردها من المواهب والكفايات كما فعل كثير من أدبائنا المعاصرين الذين ذموا طبعها وتكوينها ، واتهموها بالخلو من مزايا العقل والإبداع ، فكانوا ناقمين هادمين وما كانت النقمة والتهديم من سجايا أحمد أمين ، فقد علم المرأة و بناها ، وكرمها فى أمه وزوجته ، وفى بناته وتلميذاته ، وقدرها قدرها فى كل ذات رأى ونبوغ ، وكان يرجو أن يعم التعليم و يمتد إلى نساء القرى لتحظى الريفية بنور العلم والحضارة .

لقد دخل الدكتور أحمد أمين بغيابه عن دنيانا هيكل الخالدين ، وأصبح فى ذمة التاريخ ، فإذا تفقدناه وجدناه بآثاره ومجهوده الباقى ، ولو أحصينا حسناته فى كفاحه وسعيه وما لم يعرف الجمهور من فضله لرجحت على ما قدم جمع من العلماء والأدباء .

وبعد ، فلئن لم أكن من تلميذاته فى الجامعة فقد أتيح لى وقدر أن أكون أكثر من هؤلاء معرفة به وتتبعا لمحاضراته وأحاديثه ، وما فاتتنى صفحة من كتبه ومؤلفاته ، قرأتها معجبة مستقصية ، وكنت سعيدة برضى الفقيد عن أدبى و إهدائه إلىّ بعض الكتب التى وضعها أو شارك فى تحقيقها ، وطالما أنس بنا — قرينى وأنا — فتلقانا ببشاشته وعلى سجيته ، نستعرض ما جدّ فى الأدب ثم يحدثنا عن آخر مقال كتبه أو كتاب بين يديه يتوخى فى وضعه الجدة والاتقان .

واليوم أترحم عليه فى هذه اللمحات الخاطفة وأحس روحه رفافة حولى ، باسمة كبسمته الهادئة فى الدنيا ، فيارحمة الله ابسطى على الفقيد رياحين الخلود وتحيات الطيبين الأبرار .